قطرات من ذاكرة الفكر

عبد أحمد عبد الكريم السعدي

قصص





قطرات من ذاكرة الفكر



عبد أحمد عبد الكريم السعدي

قطرات من ذاكرة الفكر

قصص قصيرة

قطرات من ذاكرة الفكر

عبد أحمد عبد الكريم السعدي

====================

الطبعة الأولى/ أيار-٢٠٠٠م

رقم الموافقة:٤٧٤٣٢/ بتاريخ:٣٠/٣/٢٠٠٠

الإشراف الفني والإخراج: سعيد اسحاق

دار الشموس للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق: ٦٦١٥٩٤٨- ٥٤٤٤٤٢٣

ص.ب: ٣٦٦١٣

الإهداء

كانت قطرات قليلة ثم انهمرت..

سحبت من الذاكرة أحداثاً وجسدت مواقف

وألهبت إحساساً..

ربما تسعد لحظة وربما تحْزِنُ عُمْرًا

لكنها قطرات من مخزون الذاكرة

عزيزة بكل ما فيها حبيبة بكل ما تحمل

وإلى حقبة العمر تلك

وإلى ندى التي سعت لتجسيدها واقعاً حياً

ومجموعة قصصية أقدم إهدائي



تَيَّارَاتٌ مِنْ زَمَنٍ غَابِرٍ

رَتَّبَتْ الأوراقَ وأسبلتْ عينيها منهية عمل ذلك اليوم بعبارتها المشهورة والمألوفة لزوجها عادل: (الحمد لله ها قد أنجزتُ ما كان عليَّ من عمل الآن ولم يعد لي غير أن أخلد للنوم إن شاء الله) كانت هنية سيدة تجاوزت الأربعين من عمرها بقليل...

امرأةٌ ناضجةٌ مثقفةٌ عفيةٌ وهي سيدة لها مكانتها وحضورها في أي مجلس ومجتمع نسائي وذكوري...

شخصيتها قوية مهيبة الطلعة ممتلئة القوام جميلة إلى حد الملاحة صارمة في قراراتها ما تحدثت إلا كانت سباقة في هذا المجال وإلمامها بمعارف كثيرة واهتمامها بعلم الأنساب والعلاقات الاجتماعية وصلات القربى منحها سعة الاطلاع وحضور الذاكرة إضافة إلى شخصيتها المسيطرة...

عملت مدرسة لسنوات طويلةٍ ولا زالت تقوم بذلك حتى الآن حُباً بالمهنة وشغفاً بتقديم المعرفة لتلميذات أحوج إليها من أي مُدَرِّسَةٍ أخرى دخلت سلك التدريس عن غير رغبةٍ واهتمام وقد تذكرت كلمتها وهي تشرع في الاستلقاء مخاطبة زوجها: (مدرسات هذا الزمان هَمُهُنَّ الأحاديث السطحية والعبث وعدم الالتزام بمواعيد الدرس والتأخر عن الوظيفة بما لا يفيد) إلى غير ذلك ثم أتبعت قولها: (مدرسات آخر زمان دخلن التعليم لأنه هذا هو الموجود وليس بالإمكان أكثر مما كان): فعقب زوجها عادل بقوله: (يعني هذا الحاضر) وعاجلته: (مدرسات لا مظهر ولا مخبر كذلك يا عزيزي).

وأنهت قولها وقد اطمأنت لما فعلته راغبة أن تغطَّ في سباتٍ عميق. ولكن زوجها أبا مروان الموظف الملتزم بكل دقائق حياته بنظامه الخاص وهو في دائرة التحقيقات أحب أن يسامرها في تلك الساعة محدثاً إياها عن أمور عائلية تحتاج للمناقشةِ وبعض اليقظة حين قال لها: (لا تنامي يا هنية... لا زال الوقت مبكراً ولم يحن منتصف الليل بعد)، فقالت هنية: (دعني بربك يا عادل

لدي في الصباح أعمال كثيرة لا بد من إنجازها وخاصة "الصحوة بكير" صلاة الفجر وتحضير الإفطار وبعدها كالعادة ركوب السيارة معك للوصول إلى الدوام والعمل قبل نصف ساعة تقريباً ولا تنس توزيع الأولاد قبل نصف ساعة أخرى على مدارسهم الثانوية والمتوسطة والابتدائية.. فهي ست مدارس.. فنم يا عزيزي واعذرني..) وبدأت رحلتها مع النوم دون تردد..

هَزَّ أبو مروان رأسه متذمراً وقال: ما في فايدة.. الطبع غلب التطبع.. لو كان في مجلس نسائي في هذه الساعة عندها لتسيدته وطلبت مني مساعدتها في تحضير بعض الأمور المترتبة لهذه الجلسة الشاعرية والأحاديث الطرية والموضة والفساتين ولو طال بها الوقت بعد الثانية صباحاً ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله ومثل ما قالت هنية الزوجة الرضية...: عندي صباحاً ست مدارس واحدة لها واثنتان لحليمة وسلوى ثم عزت وأمير ومروان..أحسن شيء النوم وتوكلنا على الله..

ساد الصمت جوّ المنزل وسبقهما جميع الأولاد بعد كدٍّ الدراسة وُجهد الدرس وأداء الواجبات وتناول العشاء..

لكن ابنه مروان من زوجته الأولى لازال يتململ في فراشه كأنه في حلم وقد بلغ التاسعة عشرة وله شقيقته من أمه هي حليمة التي تصغره بعام ونيّف تقريباً... فتاة ناضجة تمتلك الحسن والبهاء والثقافة والتفوق الدراسي، فارعة الطول منسدلة الشعر كستنائية الأهداب في عينيها ابتسامة الصبّا وضوء يشع ببهجة الحياة تُلْهِبُكَ رقةً وتسحركَ عذوبةً.. صحت من نومها لتشرب كوباً من ماءٍ واتجهت نحو المطبخ وبعد أن أفرغت محتوى كأسها في فمها التي تناولته من الثلاجة ثم عرجت على كل أخوتها واحداً واحداً تطمئن عليهم كأمهم الحنون وتتأكد من راحة كلٍ منهم ولم تَنْسَ أخاها الأكبر فقد نظرت إليه من الباب فوجدته مستغرقاً في نومه.. فزايلها القلق وتملكتها الراحة لحرصها الشديد على أحوالهم وصحتهم دائماً ومستقبلهم وحتى نومهم فقد عهدت هنية لها بهذه المهمة ولكنها بقيت متيقظة يشغل بالها هم الدراسة والامتحانات والاستعداد والتحضير مقدماً لشهادة الثانوية العامة عما قريب..

إضافة إلى حبها وشغفها بالأزياء والموضة والمكياج، فهي بارعة بكل ذلك إلا أنها تفكر بأخيها مروان أكثر من كل هذا فهو قد جاء من دمشق ومن جامعته التي يدرس فيها بقسم علم الاجتماع إلى الخليج عائداً في إجازته الفصلية ليقضيها عندهم وليجدد إقامته في المملكة ولكن الظرف لم يُتِحْ له العودة بالسرعة الممكنة لكليته في نفس الموعد لضرورة تجديد جوازه ثم إضافة إقامته ووضع التأشيرات التي لا بد منها وهي وحدها مشكلة المشاكل لما فيها من تعقيدات وإجراءاتٍ.. وكثرةُ الاتصالاتِ والهواتفِ تأزم الانفعالاتِ ويزداد الحرج لضيق الوقت وما أصعبها.. خاصة إجراءات الحدود والموافقات التي تحتاج إلى صبر أيوب للازدحام من ناحيةٍ والتعقيدات من ناحية أخرى...

ولا شك أن حديث أخيها لها عن رغبته في تغيير دراسته إلى كلية الآداب وعلم النفس سيفقده سنة من عمره بين الكليتين وإصراره على هذا الأمر وجزمه فيه لا يقبل المناقشة وقد حاولت معه فلم تفلح وأصر على موقفه وقناعته واسترسلت حليمة بشرودها بعد انقضاء أشهر

الدراسة والامتحانات وخلصت إلى عدم الرغبة في السفر
لو استطاعت ذلك لما فيه من متاعب ومشاكل فكم توقفت
أرتال السيارات في كل نقطة وهم بداخل سيارة والدهـــا
أثناء اجتياز الحدود وعدم السماح بالنزول أو التحـــرك أو
ترك الحافلات لفترات طويلة وفي كل نقطـــة لضـــرورة
الإجراءات خاصة إذا ما تقدمت حافلاتٌ أرتال الســيارات
ونزل الكم الهائل من الركاب والأمتعةِ، فيا لها من ســاعة
فالانتظار طويل وطويل جداً صيفاً وشتاءً... ذلك وقـــت
نزولهم وقريباً يحين موعد إجازاتهم وتبدأ المشكلة وضيق
الصدر فالصيف محرق لاهب والطوابير كثيرة وأرتـــال
مسمرة لا تتقدم قيد أنملة في ذلك الزّحام الهائل والصخب
المتعالي والتذمر الذي يتناثر من أفواه الواقفيـــن لبطـــئ
الإجراءات وتقاعس المشتغلين وقلة المكيفـــات أو ربمـــا
ندرتها وأحياناً عدم وجودها أصلاً في صالات الجــوازات
مما يجعل المكان أشبه بحمام الساونا... فالشمس المحرقـة
تبخر كل الأجواء فلا يرى الناظر أمامه إلا ضباباً كثيفاً...
تلك هي التي يسمونها في دول الخليج الرطوبـــة، حيـث
يلتصق الثوب على الجسم ويتصبب العرق مـــن الجبيـــن

بقطرات مالحة تحرق الوجه عند نزولها وجريانها على صفحته..

والحالة هذه كأنه يوم الحشر وساعة النفير... كلٌّ يحاول إنجاز معاملاته بما استطاع من سرعة ليتابع إجراءات مثلها في حدودٍ أخرى وهنا تنقسم الأسرة إلى مجموعات وفرق يأخذ كل واحد مجالاً واتجاهاً. فالواقفون في الطوابير أمم كثيرة والذين يجرون هنا وهناك في سرعة جنونية يربون على الأعداد الواقفة وَجُلّهُم بلا تركيز وعدم انتباه اللهم الذهاب والعودة والسعي ما بين الأمكنة (مثل أم العروس فاضي مشغول) شيء عادي ومألوف من كثرة المعاملات والأوراق والطلبات والوقفات.

والأدهى من هذا كله الوصول لأمكنة التفتيش فهناك الخطب الأكبر فالصراع على أشده والازدحام يبلغ ذروته في اندفاع وصياح بَالِغَيْنِ (فترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) صدق الله العظيم

فهذه الآياتُ من حكمتها ومغزاها تتطابق وتنطبق على معظم المتعاقدين في رحلة عودتهم إلى أعمالهم بعد صراع مرير حتى ينطلق موكب السيارات مخترقاً الحدود النهائية والمسافاتِ وكما قالوا (الشاطر بشطارته) (والماهر يلحق)..

عندها صحت حليمة من ذهولها واستغراقها في رحلة السفر المعتاد التي أخذتها من لحظات اليقظة بعيداً في شرود فوضوي أثاره ظرف أخيها الذي لا بد له من العودة لجامعته وكليته وتعقيدات السفر ولذلك كان هذا الهم اليومي الذي يجول في أنحاء المنزل وبين أفراد الأسرة كالدوامة التي تبتلع كل من اقترب منها مع بدء كل إجازة وارتحال.

عانت حليمة من ذلك فازدادت متاعبها في هذه الظروف المحرجة خاصة حبها لأخيها الذي يسيطر عليها ويَشُدُّ تفكيرها ويهمها أمره ومستقبله وقد حالت دون عودته التعقيدات المملة مما أدى إلى عزوفه عن السفر مبدئياً حالما تنتهي تلك الإجراءات وقد انتسب ثانية لمعهد

الحاسوب (الكمبيوتر) بعدما يئس من العودة المبكرة ففيه على الأقل الاستزادة بالمعلومات ولَمِاً استجدَّ وتطويراً لثقافته في هذا الاتجاه وبينه وبين الحاسوب حب وعناق فإن تأخر عن جامعته وكليته فلا أقل من ربط نفسه بمعهد الكمبيوتر ليشغل وقته ويكتسب علماً ومهارة معاً إلى حين. وكم دخل دورات قبلاً وهو في مراحل دراسته المتوسطة والثانوية. وقد اقتنع بشعار زميل مصري الجنسية بما كان يقول (هذا الله وهذه حكمته).

فدول الخليج لا تسمح للطلاب الأجانب الناجحين بالثانوية العامة الدخول لجامعاتها ولا بد من البحث عن مقاعد لأي من هؤلاء في دولهم أو دول أخرى عربية أو غربية مما يشتت الشمل ويبعثره في أصقاع كثيرة من الدول.

فالمشكلة قائمة ولا بد لها من حل... إمَّا استمرار الاغتراب أو العودة للوطن لجمع شمل الأسرة المبعثرة ما بين الدراسة والارتحال والحقيقة أن هذا الأمر قد شغل ذهن حليمة أكثر والآن بالذَّات لأنها على أبواب

الامتحانات وولوجها باب الجامعة عما قريب إن شـــاء الله في الإجازة الصيفية أسوةً بأخيها مروان حتى تكون معــه فتحمل عنه عبء مهام المنزل وتجد فيه سنداً لها راعيـــاً أميناً وتلك كانت بعض مشاكلها التي لا تنفك تقتحم عليـها عزلتها وتتسلُّ إلى نومها في أحلامها الحياتية متتابعة فـي معظم لياليها.

لكن الهم الأكبر ما لاحظته من أمها أي زوجة أبيها وموقفها الذي ليس له حل أبداً... فقد عانت الكثـير مـن إرهاصات الضغط والقسوة واللهجة الآمرة (على فـاضي على مليان) مما عزز لديها شـعور الوحـدة والانـزواء والتصدي أحياناً لردِّ الاعتبار خاصة تلك المـرات التـي تقدم فيها أكثر من خاطب لها في العديد مـن المناسـبات مفسدة هنية أي اتفاقٍ معرقلة كل الخطوات سـلفاً وبـلا إنذار..

هكذا.. شَغَفٌ بالعناد ورغبة في الاضطهاد وعـدم ممارسة الجميع لهذا الحق إلا عن طريقها هي وبأسـلوبها المتجبر وهيمنتها المتسلطة.

وإن كانت حليمة بعيدة كل البعد عن التفكير في الخطبة والزواج لكنها أحوال... تلفت النظر وتثير الشجون والتساؤلات مما ترى.

ولعل هذا الأمر فيه ما فيه من الخطورة المستقبلية نحو التطور البعيد جداً والغريب جداً أيضاً.

والحقيقة أن هنية هي زوجة أبيها وأُمُّها بالتربية والرعاية، وما أشد الاضطهاد وأقسى العناد وأصعب حياة المداراةِ وأَمَرَّ شجونها وأبعدها عن حياة الدَّعَةِ والرتابة والسعادة والاستقرار.

إن حليمة لا تضمر إلا الخير لكل أهلها ولم يَتَسَنَّ لتفكيرها لحظة واحدة أن تُبْغِضَ أيَّاً من عائلتها وأهلها فلماذا هذه القسوة وذلك الاضطهاد؟!.

قالت ذلك حليمة في شيء من الاستغراب، ولكن الحقيقة قدمت لها الرَّدَّ السريع على سؤالها حين تذكرت أن زوجة أبيها هنية عانت من نفس المشكلة ومن تلك الظروف التي تعيشها حليمة معها فقد كانت زوجة والد هنية امرأة متسلطة شرسة الطبع فذاقت هنية منها مُرَّ

المعاناة مما عمق في داخلها هذا العداء المزمن والــروح العدائية والعدوانية لأبناء زوجها مثــل حليمــة وأخيــها مروان وكالت هنية لزوجها ولأبنائه بنفس المكيال التــي شربت منه يوم كانت في بيت أبيها وتصرف هنيــة مــع زوجها عادل لا يتفق مــع الأريحيــة المطلقــة وحســن المعاملة.

أُذِّن للفجر وصحا أبو مروان وتبعته هنية للوضــوء والصلاة فشاهدا حليمة وهــي فــي شــرودها المعــهود فزمجرت هنية صاعقة غاضبة في وجه حليمــة: (مــاذا تفعلين حتى الآن يا حليمة؟!) ثم ما الذي أيقظــك لــهذه الساعة؟. فانتبهت الصبية من شرودها مرتبكــة فزعــة وقالت لا شيء. لا شيء الآن صحوت... لا عليك يا أماه واغرورقت عيناها بالدموع فتقــاطرت بحرقــة وأســى متأوهة حزينة.

فتقدم منها والدها مهدئاً روعها حانياً عليها مُرَبِّتــاً على كتفها وضمها إلى صدره مواسياً وهو يقول أحســبك

تغضبين منها... لا تلقي بالاً لما تقول هي، وأنت تعرفين مدى حبي وإعزازي لك يا حبيبة...

لكن الأسى لم يفارق جوانحها وهي تتمتم يا الله...

(الناس ربما تعيش الاغتراب مرة واحدة أحياناً ولكنني أعيشه ثلاثاً. اللجوء، وتَشَتُّت الشمل والبعاد...، وغربة البيت الحاني وحضن الأم).



لا تفعل أرجوك

شحذ سكينه واندفع غاضباً حانقاً كثورٍ طعن في ظهره عدة طعنات من مصارعيه فازداد هيجاناً وعنفاً وبدا استياؤه في ملامحه البارزة وتقاسيم وجهه التي رسمتْ على محياة أخاديدَ متوازية من غير تناسق وانتظامٍ وكان لابد أن يغرز سكينه في ابنته حسنية التي أحبت ابن الجيران نعيم الناعم المتهتك رقيق العود لين الحركات طريّ الكلمات يتثنى في مشيته كفتاةٍ تعرض مفاتنها لمن يتقدم.. وهما في عمر المراهقةِ ما بين السادسة عشرة والسابعة عشرة من العمر.

وكان كل من حسنية ونعيم قد تأخرا دراسياً ورسبا في الشهادة المتوسطة لأكثر من سنةٍ وعلاقاتهما الصبيانية واللقاءات في الحدائق العامة والمحادثات من على شرفات المنازل كثيرة ولكن والدها جابر ما كان ليلحظ مثل هذه الأمور في فترات النهار مطلقاً فعمله كسائق تاكسي كان يستغرق منه يومه كله وجزءاً من ليله ولا يعود إلا منهكاً

مكدوداً (ومن المحتمل أن يأكل لقمة بعد أن يغسل يديـــه
ويا ألله على النوم) كما يقولون ليستقبل يوماً جديداً بهمـــةٍ
أخرى وهكذا تبدأ عجلة النهار دورتها ثانية فـــي رتابــة
معروفة لا تغيير فيها غير ملامح الوجـــوه والأشـــخاص
الجديدة التي تركب معه في مرات أخرى ثانيـــة وهكـــذا
تستمر حلقة عمره في هذا السياق المتواصل كعجلةٍ رُكِّبَتْ
على آلة معمل وليس لها غير الدوران والإنتاج... وكـــان
لا بد لوالد حسنية جابر أن يدأب كثيراً جداً لعائلته الكبيرة
المؤلفة من أحد عشر فرداً خاصةً بعد أن امتلـــك ســيارة
الأجرة التي يركبها ويعمل عليها مغرماً بها عاشـــقاً لـــها
فحياته المديدة مع أسرته ما كانت بفقره المدقع وأســـرته
الكبيرة لتسمح له أن يقتني سيارة باسمه شخصياً.. وقـــد
كان يعمل سائقاً عند أصحاب السيارات وهـــذا اســـتغرق
معظم سنواته العريضة وفي منـــزله المتواضع مع العديد
من العائلات في منطقة البحصة القديمة قبل التحديث حيث
كل عائلة تسكن غرفة واحدة من عنبر يتســـع لعشـــرين
عائلة معاً أو يزيد. وجميعهم يشتركون في دورات ميـــاه
واحدةٍ وكذلك كان المطبخ المهترئ المتعفن الـــذي نَسِـيَهُ

الزمن تتسدل على جدرانه خيطان العشبشون الأســود.. وتتدلى من سقفه نُسُجُ العنكبوت المُعَمَّرِ في أشكال مقـززةٍ والحشرات تسرح في أرض المطبخ كيفمـا شـاعت دون رقيب أو حسيب..وجابر أبو أدهم.

وهاهو قد سكن الآن شقةً وامتطى سـيارة يملكـها وتحسن حاله ولكن حال الأسرة الكبيرة الذي لا يرحـم لا زال يلاحقه ليل نهار بالطلبات التي تَرِفُ عليه كـالمطر المنهمر المهطال.. فمن أين له أكثر وقد فعل فـوق مـا يستطيع وهاهو يعاني القلق منـهك مكـدود لا يكـل ولا يمل.. ولولا أخوه فريد الذي مات منذ سنوات وهو يعاني الذبحة الصدرية ولم يكن له أبناء ذكـور غـير زوجتـه وخمس بنات مع أمهم وأموالٍ كثيرة بـالملايين... لمـا استطاع جابر شراء شقة والظهور فوق السطح بعيداً عـن غرفة العنبر فقد تقاسم جابر مع أخوته السـتة وأخواتـه البنات الثلاث وبنات المرحوم وزوجته الميراث فكـان أن تحصل على سكن في منطقة ركن الدين الأفضل والأكـثر تنظيماً وراحة من غرفته المظلمة التي عاش بها سـنواتٍ

طويلةٍ... وقد استأجر أخوُه فريد له هذه الشقة قبل وفاتـــه بأشهر لشعوره بحالة أخيه المزرية فانتشله مـــن مكانـــه المتردي وأسرته والآن وقد دامت معاملات حصر الإرث عدة سنوات كان لا بد أن يشتري الشقة التي يقطنها بربـع الثمن فهو المستأجر الساكن ولن يخليها إلا بحالتين... إما أن يأخذ (خلو رجل) أو أن يشتريها بثمن زهيد بخسٍ دون قيمتها الحقيقية.

وصاحب الشقة لا يستطيع إخـــلاءه لأنـــه يتســـلم الأجرة كاملة من المصرف كل أول شهر وذلك هو المبلغ الذي أودعه فريد الأخ المتوفى قبل ارتحاله إلـــى عـــالم الآخرة ليكون أجراً مدفوعاً لجابر وأسرته فـــي شـــقتهم المؤجرة باسمهم..

فما كان من صاحب الشقة إلا أن استخار ربه وأخذ ما اتُّفِقَ عليه وصار جابر من أصحاب الأملاك في شـــقةٍ بالدور الرابع مضافاً لها السطح الذي استأنس فيه جـــابر للجلوس به ساعة الصفاء من يوم الجمعة مخططاً فوقـــه

لبناء شقة أخرى عليه لابنهِ الأكبر أدهم فيما بعد عندما يزوجه بابنة الحلال إن شاء الله.

ولم تكن زوجة جابر أم العيال رتيبة لترضى من زوجها جابر قسمته تلك وهي امتلاك الشقة وتسجيلها باسمه وأن يتصرف بنصيبه بالميراث دون أن يكون لها حصة من نصيب الأسد وهي الزوجة التي تحب أن تمتلك كغيرها شيئاً من متع الحياة فاشترطت عليه أن يقتطع مبلغاً لها لشراء شيء من الحلي والذهب ما يتناسب مع شخصيتها وحيثياتها المجتمعية واللقاءات النسائية في قابل الأيام...فانصاع أبو أدهم مضطراً مرغماً لأمرها محققاً لها ما طلبت دون تردد فهو الذي يعشقها ويهيم بها فليفنى الجميعُ أبناءً وبناتاً وتكون هي راضيةً أولاً وأخيراً وقد خُطِبَتْ لابن عمها (عَزّام) قديماً عندما انخرط في سلك البوليس في الجيش البريطاني من قِبَلِ الوالدينِ وقراءة الفاتحة وهو عن ذلك بعيدٌ بعد الشمس عن الأرض مما لم يفسح مجالاً لزواجهما فحظي بها جابر وأصبحت رتيبة زوجته فيما بعد ثم وهل تحقق هذا الحلم...؟ وما كان

ليصدق جابر ذلك لولا أن صارت حقيقة يتلمسها كل ليلة قبل النوم منذ عشرات السنين وهو يفعل ذلك متحققاً من وجودها لديه ومعه وكم لاحظ أبناؤه من حركاته تلك التي يداعب فيها زوجته ما نَمَّى غرائزهم المكبوتة وتفاعلت مع الأيام متجسدةً في تصرفاتهم المستقبلية. فجابر كان شاباً أشقر جميلاً يتميز عن أخوته بلونه المتوهج فهو الوحيد الذي يتسم بما أنعم الله عليه دون أخوته السُّمْرِ شُبَّاناً وصبايا..

تعلقت به ممرضة بريطانية في إحدى المستشفيات التي تردد عليها وأصبحت قصته معلنةً بين الجميع من الأهل والمعارف ولكنه لم يأبه بذلك حتى كان أن تزوج من رتيبة بعد سنوات... (حُبٌّ مشبوبٌ بغرامٍ عاصفٍ) ولولا أن رتيبة لها من الحسن والجمال والدلال والغنج والأنوثة المفرطة والطول الذي يماثل طوله والإطلالة المشتهاة وقوة الشخصية ما غلب عليه النسيان واكتفى برتيبة زوجة وحبيبة... وهاهو الآن جابر يمتلك زوجة

وبيتاً وسيارةً ، ومن الناس من تهبط عليهم الثروة فجـــأة ويتغير حالهم دون سابق إنذار (وسبحان العاطي)

فقد تحصل على ثمن الشقة من ميراث أخيه فريـــد المتوفى وامتلك سيارة أجرة عن طريق أخيه الثاني نــزار (فمصائب قومٍ عند قومٍ فوائدُ) كان نزار رجـــل أعمـــال معروفاً انطلق بسرعة البرق نحو الثروة محققـــاً نجاحـــاً باهراً حين أسعفته الظروف وخدمته الأيام والحظوظ وكما قيل عنه (حظه بين رجليه مثل الدجاج)، فقد اشترى نزار لأبي أدهم تلك السيارة التي يعتليها الآن متباهياً هانئاً بـــها وبامتلاكها، وجابر ينظر إلى السيارة ولا يصدق نفســـه، وهاهو يتأملها ملياً وكثيراً ما وقف أمامها ليمر بيديه فوق حديدها مباركاً لنفسه هدية أخيه الغالية، يجهد بتنظيفـــها، والعناية بها ويفنى طوال نهاره بالعمل عليها حتى يفـــي بطلبات الزوجة والأولاد جميعاً، والمسؤولياتُ الحياتيـة لا ترحم ولا تنتهي أبداً.

وقد عَزَّ عليه أن يمتلك البيت والســـيارة فقـــط ولا يكون لديه المال الكافي حتى ينهل من متع الحياة ويستمتع

بما لذ وطاب فهو جشـــع لا يقنـــع بـــالقليل ولا بـــالكثير وصحيح أن المسؤوليات كثيرة أيضاً متشعبة وليس لـــــها آخر ولكنه ما ذكر ربه بالحمد على ما أنعم عليه يومـــــاً، فهو جحود متلاف ينظر إلى أخيه رجل الأعمـــال بعيـــن الحسد والبغضاء لوفرة ما لديه وقلة ذات يده هو.... ومع أن نزار أخاه الأصغر لا يترك فرصة تحين حتى يستغلها ليقدم لجابر وأسرته ما تجود به نفسه عن طيـــب خـــاطر لكن أبا أدهم لا يقنعه الفتات فهو ينظر إلى أن يكـون ذات يوم من أصحاب الملايين وكم غـــالى بحديثـــه المتبجـــح وكلماته السوقية بالسِّبَاب المفرط لكل أهله خاصة لأخيـــه نزار الذي لم يغدق عليه كل ماله ليرضى عنه. لكن جابر لديه ثروة كبيرة هي بناته التي لا تعادلها ثروة فلديه منهن ست بنات... كل واحدةٍ هي بدر يتلألأ وقد شبت الفتيـــات عن الطوق وظهرن بأجمل صورة، حوريات يتجلين فـــي خدرهن ووالدهن وأمهن همـــــهما الوحيـــد أن يـــتزوجن بالشخصيات المرموقة كالمهندس والمـــــدرس والطبيـــب وأصحاب الثروات حتى يتفاخرا في المستقبل بالشـــهادات العالية والشخصيات المميزة ويجني كل منهما بعد ذلـــــك

عن طريقهن ما يتمنى بعد هذا الصـــبر القــاتل والحيــاة المعذبة فتكون الحظوة والثروة آنذاك.

ولكن الأحلام لا تأتي دائماً كلها سعيدة فقد خُطِبَــتْ ثلاث بنات لأبناء أُختِ جابر كلهم مهندســـون إلا البنــت الرابعة الكبرى السمراء فقد أحبت ابن الجيران واتفقا على الزواج ولكنه موظف بمستوى الثانوية العامة مما لا يتيح له فرصة الغنى وامتلاك الثروات..

فقد عَزَّ على جابر أن تكون ابنته الكبيرة ســـمراء اللون كأفراد أسرته الأخت والأخ وأن يكون حظها مــــن الجمال أقل من مثيلاتها. وهذا الأمر لا يُيَسِّرُ له ما يتمنــى فيما بعد، لقد عَذَّبَهُ هذا المصير على أنه قال: (هي سمراء وخاطبها بسيط وهذا بذاك قِدرةٌ ولاقتْ غطاها) وكم جنــى من الويلات والمشاكل جابر من جراء رحلة الحب تلـــك بين الاثنين ما أتعبه فالحب لا يمنح المال ولا يجني منـــه إلا الوبال. هكذا تراءت الأمور بعيني جابر دائماً وكــانت فلسفته في الحياة (القرش أولاً وليأتِ بعده الطوفان) وربما كانت هذه المقولة التي يتخذها شعاره الحيــاتي مرجعـــها

لعذاباته التي عاشها وظروفه ومعاناته مع أسرته ثم لقلة ذات اليد ثانياً... وجشع زوجته رتيبة وحبها لذاتها وهيمنتها وتعلقها بالمظاهر المزيفة الخداعة، فهي وقد بلغت من العمر ما فوق الخمسين لا زالت المرأة المتصابية التي لا هم لها غير الاستعراض والمكياج وزيارة الصالونات مؤخراً بعد أن طفت على السطح وأخذت من الفرص بنصيب وحتى لو بقي زوجها الحراث الكادح تحت نيرها الليلي وشقائه النهاري المتواصل ثالثاً. لكن الحقيقة أن الكثيرين من البشر ممن يعانون ويتألمون ويجاهدون في حياتهم ما يغنيهم عن مثل حكمة جابر وجبروت رتيبة ويعوضهم بالقناعة والرضى أملاً بيوم أفضل وحياة أجمل حين يقولون (الشرف والكرامة أولاً ثم المال والغنى ثانياً)...

وهاهو جابر قد لمح ابنته حسنية الفتاة اللعوب العنيدة الشرسة التي لا تستجيب لأمر ولا تفلح في شيء. رسبت في الشهادة المتوسطة عدة مرات وهاهي الآن تعبر من أمامه على الرصيف الآخر بصحبة ذلك الغلام

المخنث (نعيم الناعم) كما يسميه هو... كان ذلك عندمـــا تجاوز جابر بسيارته إشارة المرور الخضـــراء بعـد أن أضاءت له وهو يصطحب العديد مـــن الركـــاب فنادهـــا بصوته الأجش الخشن (يا حسنية...يا حسنية) فلم يفلـــح نداؤه ولم تستجب لصوته الجهوري رغم أنـــها نظـــرت بطرف عينها ناحيته وقد عرفته وتأكدت منه حقـــاً إنـــه والدها فأسرعت الخطى مختفية عن الأنظار فـــي زحـــام المارةِ ولم يعد بإمكانه تركُ السيارة والركـــاب والجـــري وراءها لِيتْبِعَهَا بصاعقة تقضي عليها فما كان منه إلا كظم غيظه إلى حين وأخمد غضبه الذي تفـــاعل فـــي جميـــع جسمه وكيانه من تصرفاتها وعدم انتباهها وتجاهلها له فقد شعر بما لا يقبل الشك بأنها سمعت صيحاته ولم تســتجب فاضطر لإنهاء سفرته تلك بركابه إلى محطتهم الأخـــيرة وقفل عائداً منفعلاً يثُور ويزبد حتى دخل بيته وتوجه مـــن فوره نحو المطبخ ممسكاً سكيناً كبيرةً ليحُزَّ بها رأس ابنته الملعونة بعد أن شحذها بسكينٍ آخر وهو يصيـــح (أيـــن حسنية؟!..أين حسنية).

وتصدرت زوجته رتيبة ساحة الصالون وهي تقول بخبثٍ وبصوتها المُغنَّجِ، ما الذي عاد بــك مبكــراً يــا حبيبي؟! هذا اليوم... لاشك أنك تشتاقُ إليّ).

ثار أكثر أبو أدهم وعلا صوته وهو يلوح بيده التي تحمل السكينة الكبيرة مردداً: (أين حسنية يا مَرَة؟)...(لقد عفَّرَتْ رأسي بالتراب وداست كرامتي وقد شاهدتها تمشي مع ذلك الغلام العاهر المخنث نعيم الناعم) وردَّدَ ثانية.... أين هي؟!.

حضنته رتيبة زوجته بيديها وتلقفته بصدرها الدافئ حتى تنهي الكارثة وهي تعلــم أن ابنتــها فــي الغرفــة المجاورة وقد أقفلت عليها الباب حتى ترى في ذلك أمــراً وتحل المشكلة... لكن أبا أدهم وجد أن الفرصة أصبحــت مواتية وحان القطاف العاجل. فها هي أمامه وقــد دقــت ساعتها وحسابها فلا بد من ذلك واندفع نحوهــا بغضبــه العارم مبعداً زوجته رتيبة عن طريقه وقد تشــبثت بــه فانغرست سكينه في صدرها ووقعت أرضاً تسبح بدمائــها الغزيرة.

فذهل جابر من هذا المشهد ولَمِاَ فعل، وقد تشـــنَّجَ قلبه وتجمدت يداه وتحجرت عيناه وانهار فوقها مفارقـــاً الحياة ذبيح الجنون في لحظاتٍ قاتلةٍ وكأن زوجته تقـــول له: لا تفعل أرجوك.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الديك الرومي

جلَسَا أمام المذياع وهما يتحادثان مستمعين للأناشيد الوطنية الحماسية المجلجلة في فضاء سماء قرية كـــوك تبَّةَ التابعة لعين العرب من أعمال حلب الشـــهباء بعــد انتهاء الحرب والمعارك التي خاضها جيشـــنا العربـــي السوري الباسل إثر الانتصارات فـــي حـــرب تشـــرين التحريرية من عام /١٩٧٣/ المظفــرة دَحْــراً للعــدوان الإسرائيلي واسترداداً للأراضـــي التـــي وقعــت تحــت الاحتلال بعد حرب حزيران عام /١٩٦٧/ في الخـــامس منه وقد استفاق المارد العربي الأبي ونهض مهيباً عظيماً شامخاً مجتاحاً الحصون والمعاقل مخترقـــاً المســاحات الواسعة أمامه وقد أبلى البلاء الحســـن وكـــان نضـــالاً مشرفاً... فرح الشعب الوفي به وابتهجت الدنيـــا وســـعد أهالي القرية الموجودة خلف نهر الفرات المسماة كـــوك تبَّةَ بمسافة تبعد نحو ثلاثمائـــة كيلـــو مـــترٍ وارتفعــت الزغاريد فهو عيد النصر والبطولات العظيمة فقد بدأتـــها مصر بمعركتها المسماة بمعركة العبور علـــى الجبهـــة

الجنوبية ثم دخلتها سورية وكـــان الانتصـــار والغلبــة للأبطال الميامين وما أحلاها فهي فرحة النصـــر وعيــد الفطر وهنا تهيأ كل من الزملاء الموجودين فـــي هــذه القرية والقرية المجاورة استعداداً للرحيـــل بعــد هــذا الصباح المشرق بالفرحة والعزة والشموخ وقد حان وقت انتهاء العمل المدرسي وبدء إجازة عيد الفطـــر. عندهــا اجتمع الزملاء وقرروا شراء بعض الأشياء من القريــــة هدية للأهل والأحباب كالبيض البلدي والســمن العربـــي والدجاج الرومي. عند عودتهم لقضاء الإجازة فيما بيـــن أهلهم وتوجهوا لأهالي القرية الذين يبيعون هذه الأشـــياء والدواجن ما تيسر لهم من رزق الله ميممين الوجهة نحو حلب الشهباء المدينة الناهضة الواسعة التي تقبـــع علـــى رابية مُرْتَفِعةٍ في شمال سورية الأبية إنها مدينة ســـــيف الدولة الحمداني عريقة التاريخ والأثر والحضارة عـــبر الأزمان والعصور.. وابتاع كل مـــن المعلميـــن منـــير القاضي وفايز الأسود وفتحي الحاج خليل مـــا رغبـــوا بشرائه وبدأت الرحلة من قرية كوك تبَّةَ التي يسكن فيــها فتحي إلى قرية زميليه وكانا عنده ضيفين في تلك الساعة فلا بد من المسير أولاً نحو القرية الثانية لوجود ســـيارة

الأجرة الجيب التي يقودها السائق مرعي في قرية مركز المخفر وللنوم فيها عند الزملاء حتى الصباح من اليـــوم التالي فهو لا يمضي إلا باكراً جداً والمســـافة مـــا بيـــن القريتين تحتاج إلى نصف ساعة سيراً على الأقدام علـــى أقل تقدير وربما تتجاوز ثلثي الساعة أحياناً والوقـــت لا يسمح بالسفر حتى يعود مرعي من سفرته ولا يكون ذلك إلا في الغد من يوم جديد. لذلك لا مـــانع مـــن المشـــي بالأمتعة والحاجيات وقد ودَّعَ فتحي الحاج خليـــل أهـــل القرية بصحبة زملائه متوجهين إلى قرية مركز المخفـــر حتى يوم غد وانطلقوا وهم يتشاورون بالأحاديث حـــول مهمة العلم الوحيد في كل قرية من تلك المنـــاطق ودوره في تنمية القدرات والتربية والإعـــداد والتعليـــم لجميـــع فصول الدراسة الذين يلتحقون بمدارسهم بعد التعيين فـــي تلك المناطق النائية البعيدة ولذلك تكون مهمـــة المعلـــم الوحيد في المدرسة لعدد من الصفوف في كـــل مرحلـــة صعبة جداً ولا بد لها من مهارة وحسن تدبير حتى يقـــدم الفائدة للجميع بتقسيم العمل ما بيـــن عـــدة فئـــات الأول والثاني، والثالث والرابع، والخامس والســـادس، وتلـــك كانت مهمة المعلم فتحي الحاج خليل تقريباً، لأنـــه كـــان

وحيداً في قريته ريثما ترسل مديرية حلب له معلماً أخـر أو معلمين يقومان معه بعبء العمـــل لـتزداد المنفعـة ويستفيد التلاميذ. ثم توجه المعلمون بعد وصولـهم إلـى قرية مركز المخفر للمنطقة إلى بيت مرعي ليتركوا لـه خبراً عند أخيه الأصغر برغبتهم وعزمهم على السـفر معه صباح اليوم التالي بعدها قضوا يومهم فـي سـكن المُعَلِّمَيْنِ الآخرين حتى الغد. تساقطت الأمطار بغـزارة حول بيوت القرية التي تظهر للرائي مـن بعيـد كأنـها صوامع غلالٍ وحبوبٍ لأنها مبنية على شكل قباب طينية متلاصقة بجانب بعضها تضيء ليلها بالسِّراج ونـهارها بالشمس الساطعة، أما في الشتاء فالظلمة تكتسح النـهار أيضاً ولا يُرى في البيوت إلا أشباحاً تتحـرك داخلـها لضعف الإمكانيات وقلة الوقود من حطب ونفط أحيانـاً، ولِلْمَشَقَّةِ في وصوله إليهم أن الطرقات كانت كلها موحلـة ضيقة تتسرب بين القباب كحياتٍ تتلـوى فيمـا بينـها متعرجة ممهدة لكثرة ما داستها رجل الإنسـان ومشـت عليها العربات التي تجرها الحيوانات البسـيطة وهـي تحاذر الوقوع في الحفر التي توزعت فـي كثـيرٍ مـن أرجائها بجانب كل طريق فاغرة فاهاً موحشة خاصة في

الليل. حُفِرَتْ منذ زمن أبيارٌ واحدٌ بعد الآخر للحصـــول على الماء يدوياً حتى جفت وأقفرت فهجرت وتنـــاثرت وقد توجس المعلم فتحي أول الأمر خيفة منها عندما جاء القرية معلماً جديداً وحيداً وكان يخشى خاصة في الليـــل عند تجوله من مكان لآخر من الوقوع فيها وهو ينظــــر باستغراب لأصحابه من أهل القرية كيف يمرون بسـرعة من جانبها ولا يقعون فيها فتساءل وسأل أحدهم فأجابـــه: إنها عادة وقد تعودنا على الظلام وحفظنا أمكنتـــها فـــلا شيء يهم ولا نلق بالاً لها فاستغرب فتحي أكثر، كيف لا يلقي بالاً لها وهي تمتلئ بالأفاعي والثعابين وقد سمع عن الكثيرين الذين عضتهم الحيات وليس مـــن طبيـــب، أو مستوصف، أو حتى صيدلية، أو ممرض ليسعفهم في تلك اللحظات العصيبة فازدادت هواجسه ولم يقتنع بما قيـــل، وصاحبه الذي يحدثه أدرد ذهبت أسنانه من كـــثرة مـــا امتصَّ من سمومها ممن يتعرضـــون لعـــض الثعـــابين وأمثالها، فالعلاج الوحيد هو هذه الطريقة البدائية البسيطة في ذلك المكان النائي البعيد عن كل طبابة وعـــلاج، ولا يوجد غيرها أبداً، فسموم الأفاعي مع الأيام تترك أثـــراً كبيراً في فم من ينقذ الآخرين من عضها وتؤثـــر علـــى

الأسنان فتتساقط متآكلة من جذورها متهاوية... طلع صباح اليوم التالي وقد صحا الجو، وبان النهار، وانعقد فوق القرية قوس قزح، حتى السماء متلألئاً بألوانه الزاهية البنفسجية والصفراء والزرقاء والبيضاء عندما لاحت الشمس من وراء الأفق ترسل أشعتها الواهنة الباهتة في جوها الشتوي من شهر تشرين الأول، وقد جاء الشتاء هذا العام مبكراً جداً يبشر بموسم خير وحصاد كبيرين، والفلاحون يسعون في الأرض وبعدها ينتظرون رحمة الله عليها حتى تسعفهم السماء بمطرها فهي فرحتهم الثالثة التي أنقذتهم من القنوط بعد هطول الأمطار. إنهم ينتظرونها بفارغ الصبر ويعقدون عليها الآمال العريضة فالزواج ينتظر هذا الموسم والبناء والسفر وشراء الحاجيات وكل ما يتمناه الفلاح وما يسعى إليه معقود عليه الأمل وعلى مطر الله وخيره فهو بداية الفرج خاصة إذا جاء مبكراً، فالسعادة غامرة والمشاكل تنتظر الحل قريباً. ها هي سيارة ركاب الجيب واقفةً أمام مركز المخفر تتأهب للانطلاق يعتليها السائق مرعي... حرك مفتاح عجلة القيادة فدار محركها بدخانه الذي يبين في الشتاء مقطراً فوق الأرض، بعض النقط عند الدوران

والإحماء استعداداً للانطلاق وقد تــرك مرعــي لبــوق سيارته الزعيق مراتٍ عدةٍ حتى ينبه الركــاب ومنــهم المعلمين... بدا مرعي ضخم الجسم عريــض المنكبيــن جهم القامة واسع العينين أجش الصوت قوي العزيمــة، يمسك بعجلة القيادة، وكأنه يقود دبابة أو يمسك بمدفع فقد خدم في الجيش مجنداً بسلاح المدفعية.. ماهر متمــرس عنيد صلب لا تثنيه العقبات ولا يحفل بالتحديات.

أطلق صوت بوق سيارته الحبيب ثانية ليسرع كـل من تأخر عن الركب قبل أن يتركهم لليوم التالي فتراكض المسافرون وجاء المعلمون هرولة مســرعين وبأيديــهم أحمالهم وعلى أكتافهم، فالحمولة هي الركاب والدواجــن والأمتعة وكل شيء يمكن أن ينتقل بسيارة الجيب فــهي وسيلة النقل... اللهم إلا الدراجات النارية التي تأتي القرية أحياناً بطلب خاص من عين العرب لتوصــل واحــداً أو اثنين بأجرٍ غالٍ ولا شيء غير ذلك أبداً...انتصب فــوق المركز علم سورية الوطن الغالي مرفرفاً فــوق ســارية المخفر يخفق متماوجاً كلما هبت عليه ريح ناعمة طريــة مشبعة بالندى ورذاذ المطر المتراسل وطيــور القريــة تحيط به وقد توزعت فوق الجدران وعلى القباب وأكــوام

القش وتلال التراب وكوّاتُ الحمام العاليـــــة... وكأنـــها حراس النهار تأخذ دورها بعد مهمة رجال المخفر الليلية والحفاظ على الأمن والنظام وهم يتجولون بيـــن القـــرى بسياراتهم العسكرية. تحرك مرعي أخيراً بعد أن سدَّ كـل منفذٍ في سيارته ومكانٍ وعن يمينه وعن شماله بالركـــاب والأمتعة والطيور وتراكب الناس فوق بعضهم متلاصقين بالكاد يجلسون، وجهتهم عين العرب في رحلـــــة شــاقة وَعِرَةٍ الجبال الجرداء القاحلة إلا من مزارع القطن فـــي مناطق متفرقة ومساكب البساتين التـــي بـــدأت حديثـــاً بالظهور في تلك القرى القَصِيَّةِ شمالاً والتي تتاخم الحدود التركية من جهتها الجنوبية الشرقية وقد دبَّتْ فيها الحيـــاة بعد جهود الدولة المتواصلة للحث على الزراعة القطنيـــة والمناطق الرعوية والحبوب بأنواعها من قمح وشـــــعير وما إلى ذلك وبعض الخضروات لتوفير الاكتفاء الذاتـــي والتصدير إن أمكنهم مـــن محصـــول القطـــن، وتلبيـــة الاستهلاك لحاجات أهل القرى، ومع دعم اتحاد الفلاحين السخي الذي يقدم العلف والسماد والإرشاد مما ساعد ذلك على التوطين والاستقرار، وعدم الترحـــال واســتصلاح الأراضي الحبيبة والاستفادة مـــن المســاحات الكبــيرة

المترامية الأطراف في تلال ومهاد حتى أصبحت تسُرُّ الناظر وتبهج النفس وتبشر بالغد السعيد الساطع، فالقمح والشعير والحبوب بأنواعها والقطن تلك هي الغلال الرئيسة والأساسية في معظم الأراضي المستصلحة للفلاحين، مما طور المنطقة وجعلها رافداً للثروة القومية خاصة من القطن الذي يصدر بنوعية ممتازة جداً للخارج ثم الحبوب التي تعوض الاحتياج بما يَسُدُّ النقص وبلادنا التي كانت تصدر القمح إلى روما والعالم. ها هي الآن بفضل جهود الدولة بلغت شأواً جديداً ومكانة مرموقة وعادت تتصدر ساحتها المتقدمة في أهمية الغذاء العالمي لبني الإنسان، وأصبحت سورية من الدول المهمة في هذا السبق تلبي حاجة الشعب والوطن وتقدم الخير بالحصول على العملات الصعبة للدول المحتاجة من فائضها المتوفر في ميزانها التجاري المتوازن، وقد أمَّنَ هذا التوازن القطع الأجنبي وزاد حصيلة الصادرات وقلل من الواردات والاعتماد على الدول المصدرة إليها بفارق كبير فتوجهت الجهود والمساعي للتخطيط والبناء والمشاريع العملاقة الفاعلة في أرجاء الوطن.

تلك هي الجهود التي أثمرت متواكبة في كل

الجهات وها هي حقول القمح المعدة للبذار تلـــوح فـــي امتداد الرحلة حمراء بتربة غنية بكر قد شقها المحـــراث الحديث وأعمل فيها الفلاح جهده فصارت حقولاً متوازية كصفحات كتاب مفتوح تقول للناظرين تلك هي الجـــهود الحقيقية والاهتمام من رجال الدولة أمامكم تشـــير إلـــى الإنجازات بكل مجالاتها. رافقت الطريق ما بين كوكبِ تبة وقرية مركز المخفر مسافات كبيرة أخرى أيضاً تتمـــيز عن غيرها من كل القرى بغابات أشجار السرو والحـــور التي صارت موئلاً للطيور بكل أنواعها وملجأ للعصـــافير والكناري في بقعة خضراء تضم الطيور والحمائم. تغذيها مضخات الماء من الآبار الارتوازية التي حفرت حديثـــاً للسقاية والعناية بالأشجار والزارعة ممـــا جلـــب إليـــها الصيادين من لبنان في هذا الموسم من السنة لاصطيادها ومطاردة القطا والحباري المهاجرة مـــن شـــمال تركيـــا وغيرها نحو الجنوب عابرة تلك المنطقـــة بمجموعاتـــها الهائلة ورحلاتها المعتادة نحو الدفء في الجزيرة العربية ثم العودة شمالاً في الصيف ثانية إلى مكانها الأصلـــي... أثمرت الجهود وسعد المواطن ولا زال الطريق طويـــلاً نحو الإنجازات المتعاقبة المتواصلة وليـــس بالمســـتطاع

إنجاز كل شيء معاً في وقت واحد فالخطوات الجريئـــة والخطط الخمسية تأتي على مراحل. وها هي بدأت تشـق طريقها بهذه الجبال الصعبة الوعرة.. وتغـير ملامحـها الجرداء القفراء إلى جنان تموج بالذهب الأبيـض مـن القطن والذهب الأصفر من القمح إضافـة إلـى الذهـب الأسود وما بين هذا وذاك يطـول الطريـق، ويختـرق السائق مرعي بسيارته الجبارة كل تلك التلال والمنحنيات والحفر متجاوزاً المواقع المائية التي شكلتها السيول وهـو يخوض غمارها غير آبهٍ بها فتارةً يطلق العنان للسـيارة وأخرى يهدئ السرعة وهي تنوء بحملها وجبروت سائقها وقد ارتفعت الحقائب والأكياس والصـرر فوقـها كتَـلٌ شاهق عدا عن امتلائها من داخلها بالركـاب والطيـور والأمتعة... مما يُظْهِرُ تمايلها بوضـوح عندمـا تجنـح للانقلاب لكن مرعي وهو العنيد الحازم وقد اعتاد هـذا الطريق الجبلي الصعب لا يبالي بهذه العقبات.. صـاحت امرأة بخوفٍ ظاهر: (تمهل يا مرعي ستودي بنـا إلـى الموت) أجابها مرعي: (لا تخافي... السيارة فيـها دبـل كبير يا حجة).وتابع مسيره وهو يأخذ نفساً عميقـاً مـن سيجارته اللفِّ التي أعدها مسبقاً في علبة الدخان التـي

تناولها من جيبه وقدح من ولاعته القديمة بصيص نـــارٍ بعد عدة مراتٍ متتالية فالولاعة قداحة على الفتيل مضافاً إليها عجلةٌ وحجر لقدح الشرر... فهو لا يحب غيرهـــا ويستمتع بها وبسيجارته اللف وكأنه يقول طالما أني أنـــا الذي أقود فثقوا ولا تخافوا وهذا النفس ســلطان القيــادة طوى الكثير من القرى متجاوزاً إياها بسرعته الخاطفـــة ويحاذيه عن شماله البعيد قطار حلب(الأوتـــو مـــتريس) الذي يمر في الشمال ويصل البلدان الأكثر سهولة وأقـــل وعورة من غيرها داخلاً في الأراضي التركية ثم يخــرج منها ليكمل طريقه لبلدان أخرى ثم يعـــود. وفـــي تلــك المنطقة كان اقرب بمحاذاته لها.. وصوته القوي يجلجــل مدوياً فيسمعه الفلاح والسكان في ذلك المكان.انتصـــــف النهار وبلغ مرعي بحمولته منطقة عين العــــرب علـــى ضفة نهر الفرات الشمالية وهناك حط الرحـــال وأنـــزل الأحمال ليتوزع كل واحد إلى وجهته وليبقى هـــو فيـــها ينتظر القادمين العائدين إلى كل تلك القرى ليعود بهم في اليوم التالي باكراً مع سيجارة لفٍ أخرى وهمـــة جبـــارة متمرسة حاضرة. وقف المعلمون الثلاثة وأمامـــهم كـــل الأمتعة يتحدثون فابتدر الحديث أولاً فايز الأسود قـــائلاً:

(ما رأيكم يا جماعة ها قد قطعنا شـــوطين حتــى الآن، السير على الأقدام ورحلة الجبال والآن لا بُدَّ لنـــا مــن خوض النهر قال منير القاضي: (وأي نهر...؟) وأتبعــها بضحكةٍ (نحن لا نعرف الســباحة ولســنا فــي فصــل الصيف...) أجابه فايز الأسود: (يا شيخ نهر الفرات وهل سنقطعه خوضاً أو مشياً لا بد لنا من باص كبير ليجتــاز بنا المسافة فوق العبارة..) قال فتحي الحاج خليل: (لازلنا بعيدين عن النهر يا فايز) فسارع فايز الأسود بقوله (بــل لابد لنا من السيارة الكبيرة خير لنا من سيارتين واحــدة لشط النهر وأخرى لحلب الشهباء فهنا يوجــد النوعــان والأفضل الحافلة الكبيرة التي ستنقلنا حتى مدينة حلــب وأنا أدعوكم من الآن لزيارتي يا شباب والنــزول عندي في مخيم النيرب خارج حلب فلا ترفضوا الدعــوة لــو سمحتم...) قال منير القاضي: (يا أخي أنا قريب منك ولا داعي للذهاب إلى مخيمِ النيرب ومخيمُ حندراتٍ ينتظرني للعودة إليه ومشاهدة أهلي وأصحابي) قال فتحي الحــاج خليل: (لا داعي لكل ذلك فلدينا من الأمتعة ما يُثْقِلُ حملنا ويَهُدُّ أكتافنا وخير لي استمرار السفر حتى أصل دمشــق على جناح السرعة) فقال فــايز الأســود: (أوَ تحســبني

سأتركك تذهب بكل ذلك وأنا ما دوري إذاً وأين النخـــوة والحميمة يا فتحي؟؟؟ لا مانع من ذهاب منـــير ولكنــك ستبقى معي وسأذبح ديكي الحبش الروميين واعدهما لــك ولن تناقش في هذا مطلقاً..) خضع فتحي للأمر وأذعــن للإرادةِ وأطاع زميله، ثم تحصلوا على حافلـــة تنتظــر القليل من الركاب وكانوا هـــم أول الصــاعدين، حيـن انطلقت نحو حلب ميممة شطرها نحو الجنوب إلـــى أن وصلت شط الفرات الشمالي وكانت، العبَّارةُ في الانتظار لأنها تعرف مواعيد الحافلات التي تعتليها والمحـــاريث وكل أنواع الحيوانات من غنم وجمال وبقر وحمير، فهي كاليابسة المتحركة فوق صفحة المـــاء الغزيــر والنـــهر العظيم الذي كثيراً ما فاض عن حده وتعطلت حركة النقل فيه مما اضطرها للبحث عن جهة أخرى أقـــل خطـــراً وأسهل منفذاً وكم غمر القرى القريبة منه والواقع بعضها في مجراه أحياناً مما يعيق طرق الإنقاذ ويسبب الغـــرق فيستعمل الناس الحلَّةَ الكبيرة لنقل عدد قليل لا يتجـــاوز أصابع اليد كل مرة فيها وبمجاديف بسيطة حيـــن يزبـــد ويثور مختلطاً فيه الماء بالطين فيعتكر المـــاء ويتوحــل آخذاً معه كل شيء مقابل بلدة تل العمارنة حتى يتحـــول

النقل إلى تل الأحمر وتل الأبيض في جهات أخرى أقل خطراً وربما يبتعدون أكثر حتى (الرَّقَّةِ) المتاخمة لمجراه... والتي أقيم في بعض مساحاتها سدُّ الفرات العظيم ومشروعه الذي حَوَّلَ الأرض إلى جنات وساعد في توليد الكهرباء عن طريق العنفات (التوربينات) الضخمة التي صارت تُغذي مدناً كثيرة في سورية وتساهم في تغذية شبكات الدول العربية الشقيقة المجاورة كالأردن ولبنان فهذا الصرح العملاق الذي أُقيم منذ السَّبعينات على نهر الفرات والجهود التي رافقته بعثت الحياة في بلادنا والنور في مدننا وقرانا وأزهر الخير في مناحي حياتنا كلها وما رافقه من مشاريع أيضاً... صعدت الحافلة بكل ما فيها فوق العبارة وصعد المحراث والعديد من الحيوانات والأمتعة وانطلقت تمخر عباب النهر متلاطم الأمواج فها هو قد ازداد منسوبه، وربما من يعبره الآن لا يتمكن بعد ساعتين من عبوره إن عاد إلى عين العرب ثانية.

وصلت العبارة الشط الثاني الجنوبي وانطلقت السيارة من عقالها سابحة في فضاء واسع عبر المسافات تجتاز المدن والقرى والأرياف فتلك هي جرابلس ثم منبج

البحتري الشاعر المبدع شاعر الوصف والحماسة وقصيدته في وصف إيوان كسرى خالدة تجسد فَنَّ شعره عبر الأجيال المتعاقبة وتظهر الربيع في ديوانه كأجمل ما يوصف... وتتابعت الحافلة رحلتها وبدأ الزملاء بالمساجلات الشعرية فيما بينهم إمتاعاً لأنفسهم ورغبة في طي المسافات والقرى، والمنازلُ تبدو مع سرعة الحافلة كأنها في سباق لا ينتهي... وقبل أن تصل الحافلة مدينة حلب بعشرين كيلو متر تَرَجَّلَ الشبَّانُ وكل منهم قادم من مخيمٍ اثنان من حَنْدَرَات والنيرب وفتحي من مخيم اليرموك في جنوب دمشق التاريخية الأموية عريقة الجذور مشرقة الوجه الحضاري قابعة عبر العصور بهيبتها الجليلة وتاريخها الحافل وعظمتها الأبدية والتي تكتنفها غوطتان شرقية وغربية تزينها بالاخضرار والجمال والبهاء الساحر ما بقيت شامخة في كل زمان وما بقي شعبها الحرُّ الأبي دماءً دفاقة حارة والتي تطاول الأيام وتبدع الابتكار وتُخَلِّدُ الأساطين...

قرع فايز الأسود باب بيته المتواضع في مخيم النيرب وجميع البيوت والمساكن كلها متشابهة في هيكلها وبساطتها وبعض بيوتها مبني من الخشب والصفيح

والآخر بالإسمنت والحديد غرفها صغيرة، وأثاثها بُسُـــطٌ ومواقد شتوية قديمة والتي يسمى مفردها (المنقل) فوقـــه يضع جمرات من حطب وفحم، قليلة الطوابـــق متوحلـــة الطرق رديئة التهوية سيئة الإنارة بدائية جداً يلعب فـــي طرقاتها الأطفال والأمطار تهطل وهم فـــي غنـــىً عـــن الفخامة والحضارة همهم اللعب وبناء المجسمات بـــالرمل والبعض الآخر يتبارزون مع زملائهم بســـيوف خشـــبية صنعوها لأنفسهم وقد مَثَّلَ كل منهم الفدائي والعدو فهم في بوتقة متماثلة تعيش اللجوء بعيداً عن فلسطين التي رزحت تحت نير الاستعمار إبَّانَ الحرب العالمية الأولى بدخـــول الجيش البريطاني والذي مهد فيما بعد بتواطئ حكومتـــه لدخول اليهود وهجراتهم المتلاحقة وقرارات التقسيم ووعد بلفور الجائر بمنح فلسطين لليهود كوطـــن قومـــي لـــهم، رسخت هذه المأساة جذورها في الأجداد والآباء والأحفـــاد ولا زالت الصورة بادية في أفعال الأطفال في أزقة مخيـم النيرب وكل المخيمات الموجودة في العديد من الأمكنة لقد استعاد فتحي الحاج خليل تلك الصور التي ألفها في مخيـم خان الشيح ومخيم فلسطين واليرموك ودنـــون وجرمانـــا وخالد بن الوليد في حمص مروراً بالمخيمات في لبنـــان

كمخيم صبرا وشاتيلا وكذلك البقعة في غرب عمان والوحدات في شرقها وما أكثرها موزعة في الشتات تشير كلها لأصابع العدوان الصهيوني الآثم وتواطئ الاستعمار البغيض وتؤكد دور الدول العربية المحيطة بفلسطين وسعة صدرها لاستقبال أبنائها وإقامتهم على أرضها وشمولهم بالعناية والاهتمام مما عزز روح الثأر ضد العدوان وأصل في الأبناء تقدير ذلك الموقف من قبل الدول الشقيقة والمساندة للحق والعدل في جميع الظروف حتى استعادة الوطن السليب... ولم يقف الإنسان الفلسطيني عند هذا الاغتراب والاستكانة للضعف والهوان فقد تجاوز محنته وعصف باغترابه وكان جديراً أن ينهض من كبوته. ويحقق ذاته من خلال التعليم فهو سلاح كل ناجح والشعب الفلسطيني هو أحوج ما يكون إلى ذلك... فتحت امرأة عجوز باب بيت فايز الأسود وأطلت برأسها فوجدت ابنها فرحبت به وقال لها: (معي ضيوف يا أمي...) فازداد ترحيبها به وبضيوفه وأطلقت زغرودة عالية فلسطينية وتجاوبت أصداؤها مع جدران البيت حتى شاركتها بناتها الثلاث واشتعلت الحارة بالزغاريد على سماع الزغرودة الأولى وتعاظم الترحيب ودبت في البيت

حركة غير اعتيادية فماذا يفعلون وهم في غاية البســاطة وضيق الحال لكنهم كُرماءُ فالموجود خير ما يقــدم مــن شاي وقهوة وبضع حبات من فاكهة الشــتاء البرتقاليــة. دخل فايز وزميله فتحي وعَرَّفَ فايز عليه أمام أهله وأنــه من مخيم اليرموك في دمشق فقالت الأخت الكبرى: (نحن شركاء إذاً... أهلاً وســهلاً ويــا حيــاك الله.. تفضلــوا بالجلوس. المكان متواضع... نعتذر يا أستاذ فتحــي...) أجابها فتحي وعلام الاعتذار وكما قلــتِ نحــن شــركاء والحال واحدة يا آنسة). كانت بهيجة معلمة في مــدارس نيرب حلب التابعة لوكالة الغوث، صبية يافعــة ناضجــة كأنها رجل في تعاملها تختلط بزملائــها مــن المعلميــن ولكنها ملتزمة بالأخلاقيات وطنية الاتجاه ثورية الشــعور حاضرة البديهة تحب وطنها الســليب وتعشــق وطنــها المضياف وقد وقعت في نفس الأستاذ فتحي بمكان القلــب بهره وطنيتها وسحره جمالها وملك عليه حسه وأسعده أن يجد مثلها في شعبه الذي لا زال علــى عــهده وولائــه وانتمائه لفلسطينه... همس فايز الأسود في أذن أمه قائلاً: علينا بإعداد الطعام يا أمي والآن ها هي الساعة الخامســة مساءً ونحن صائمون، وفتحي لا يحب التأخر عن أهلــه

أسرعي مع شقيقاتي بالطعام مع المغرب ثم لديه ديكا حبش روميان في فسحة الدار لا بد من ذَبْحِهِمَا وتنظيفهما ليأخذهما معه في رحلته بعد الإفطار) قالت الأم: (حاضر يا فايز كل شيء سيكون جاهزاً إن شاء الله) وانصرفت.

قال فتحي: (حقاً أنا سعيد بزيارتكم فأنتم مثل أهلي وقد وجدت فيكم اللهفة والطيبة والبساطة والترحيب وهذا زَادَ سعادتي ولو تأخرت عن أهلي بالوصول إليهم) دخل أبو فايز الأسود بيته بعد قليل قبيل أذان المغرب استعداداً للإفطار فوجد فتحي يجلس على أريكة فوق بساطٍ ... تعارفا فازداد الترحيب خاصة أن أبا فايز يعرف بعض الأصدقاء في مخيم اليرموك فتوثقت الصلة عبر الحديث واستأنس كل واحد بالآخر وتسامرا مع طعام الإفطار ثم ودع فتحي الجميع واستأذن بالانصراف مغادراً وهو يقول لزميله فايز: (أحب مصاهرتك يا فايز... فهل أجد فرصتي عندكم بالزواج ؟؟؟) استغرب فايز من زميله لهذه السرعة ثم قال: (ومن هي؟؟) وعقب: (نحن في جو البيت تسودنا الديمقراطية وحرية الرأي فمن هي أخبرني... من اخترت حتى أتصرف؟!.)

قال فتحي: (هي تعرف نفسها أظنها بهيجة). فقد

كانت تنظر إليه من طرف خفي قال فايز: (ما رأيكِ يـــا بهيجةَ إنه يطلبك زوجة يا أختي فهل توافقيــن؟) أسـبلت بهيجة عينيها بالموافقة دون كلام ومضى فتحـــي الحــاج خليل على أمل العودة بصحبة أهله خاطباً لــــها... وهــو يحمل الأمتعة وأبقى ديكاً رومياً واحداً عربـــون تقديــر ووفاء واقتران.



قطرات من ذاكرة الفكر

القصة بدأت بحكاية نسّاج ثياب وأمير

وحضورٌ جاء لتصفيقٍ في كل قرارٍ ومصير

تذكر عمرو هذه العبارة عندما كان يجلس في المقعد الأول من الصف الأمامي في مسرح المدينَة وهو يشاهدُ ما يراهُ أمامهُ مشابهاً لما كان قد قرأهُ عليه يوماً ذلك المدرس الحريص أن يُفنّدَ كل شيء لتلاميذه في حصته التي كان يدرسها في مادة اللغة العربية من كتاب القراءة في الصف الخامس حول مشهد في درس ما بين أميرٍ ونسّاج وحاشية وحضور... إذ لخّص عمرو كل ما قاله ذلك المدرس في عبارة مختصرة بعد أن أمعن النظر في شرح المدرس باستشرافِ مضمون مشهد المادة وكان كثيراً ما يفعل هذا وكأنه أديب أو كاتب أو شاعر يلاحظ ويتلقى ويمعن النظر ويفكر ثم يبوح بعدها بما فاض على لسانه من خواطر تفاعلت مع نفسه لِتُكوِّنَ ما يشبه الحكمة

الموجزة أو القول المأثور للمدرس إذ ذكر ما قاله بصوت مسموع (القصة بدأت بحكاية..) وأكمل عبارته.. هكذا قال عمرو لمدرسه بعد استجلاء ما سمع حول مضمون القصة فاستغرب منه المدرس ما نطق به وطلب منه أن يعيد عليه ما تفوه به منشداً ثانية وما قد جرى على لسانه... إذ مثل هذا القول لا يكون إلا للكبار من البالغين الذين عرفوا الحياة فأثمرت تجاربهم بِحِكَمٍ ولكن لم لا يكون عمْرو أحد هؤلاء طالما أن المدرس يعهد منه النبوغ والوسامة وحسن الإلقاء والحضور الدائم لكل ما يشرحُ ويقول. وما الغريب في ذلك فقد أثنى عليه مدرسه وشجعه وربَتَ على كتفِه قائلاً: أحسنت وأبلغت ولا شك أنك أوجزت فيما قلت حكمة هي أصدق ما يمثل المشهد بطلاقةٍ وسلاسةٍ وعفو الخاطر يا عزيزي..

لكن عَمْرَاً خاطبه مقاطعاً: لا يا أستاذي ما كان ذلك عفو الخاطر فقط ولكنه نتاج التركيز وحصاد الانتباه (والرفض لما هو كائن نحو ما يجب أن يكون) فازداد استغراب الدرس وتعاظم إعجابه بتلميذه النابه أكثر وأكثر وشجعه ثانية على مثابرة الاطلاع والقراءة ليعزز موهبته

بالجديد لما يكتبُ وينشر في قابل الأيام وتوقع له مستقبلاً مُشَرِّفاً مُشرقاً.. وقد كانت تلك الصورة هي التي عبرت خياله عندما كان يشاهد عرض المسرحية يومها وهو في إحدى سفراته إلى قطرٍ عزيز عليه، له فيه أصدقاء وندماء وأحبة هو مصر. وقد كانت لديه فسحة من الوقت فارتأى الذهاب إلى المسرح، وكثيراً ما تردد على معظم المسارح هناك وشاهد عروضاً كثيرة في العاصمة القاهرة، وكذلك مَدينَةُ الإسكندرية "كمسرح البالونة ومسرح المد بوليزم والعديدُ وغيرهما".

ولكن ما شَدَّ انتباهه اليوم هي تلك المسرحية التي رآها والتي كانت تمسّ وتر الإحساس وتظهر ببراعة ما كان يأمل أن يراه يوماً مشابهاً لما قاله وهو صغير في قاعة الدرس مع مدرسه في الصف الخامس..

فبدأت مقارنته وتذكر ما قاله للمدرس وما كان وقتها من إمعانه في المشهد وعبارته التي قالها..إذ ذاك..

هي...القصة بدأت بحكاية نساج ثياب وأمير.

وحضور جاء لتصفيق في كل قرارٍ ومصيرٍ.

وبدأت ذاكرته تستعيد تلك الصورة التي طبعت في مخيلته يوماً وعيناه تتابعان العرض المسرحي ولكن ذهنه رحل مع خيالاته القديمة ليستعيد ذلك المشهد فما أشبه الأمس باليوم إنه يجد توافقاً وتقارباً في الصورتين وابتسم مستغرباً محدقاً مسترجعاً غارقاً في اللوحات والعبارات والمشاهد. أليس ما سمعه يتقارب في نفس الموقف مع ما يراه الآن. حقاً إنها مفارقات عجيبة وتوافقات أحياناً وكما يقال "وقعُ الحافرِ على الحافرِ". فقد رأى في صورة الأمير ما يماثل حالياً من صور كثيرة أحياناً..

وما شجعه على استحضار الذكرى وتوارد الخواطر صوت الممثلين المرتفع فتجسدت في تلك اللحظة ما مثّلهُ التلاميذُ الصغارُ أمامهُ لذلك المشهدِ حيث جلس الأمير على مقعده المرتفع بأبهته المميزة وحوله لفيف الحاشية وإلى جانبه وزيره الساحر يهمس في أذنه: هاقد جئنا لك يا مولاي الأمير بالنسَّاجِ البارع المبدع وسترى من براعته وقدرته على العملِ والإتقان وحسنِ الصنعةِ ما يَشُدُّ الانتباه ويأخذ بالألباب والعقول .

وقد كان الجمهور والحضور من بعض العامة والكثيرين من المقربين لحاشية الأمير وندمائه ووزرائهِ.. وطفل صغير يجلس بجانب والده..

إذ ذاك أردف الوزير الساحر قائلاً: هيا يا نسَّاجنا البارع اصنع لنا رداءً جديداً.

كما فعلت بالأمس القريب في حضرة مولاك الأمير. ثم اقترب الوزير الساحر من النسَّاج الحائك ليهمس في أذنه محدثاً: "كما علمتك وأخبرتك وأوضحت لك.. ولا تخش شيئاً".

بعدها صدح صوت الوزير الساحر عالياً ثانية: هيا ابدأ براعتك وأحسن صنعك واجتهد فيما تفعل..

أحنى النساج الحائك رأسه موافقاً بالإيجاب منتظراً إشارة الأمير له بالبدء فوافاه الأمير بها وبدأت القصة وتتابعت الحكاية.. بدأ النساج الحائك ينصب قوائم وعارضات نوله استعداداً للنسيج وصنع الرداء المزخرف المزركش لشخص الأمير العظيم وتوالت حركاته بوضع خيوط الحرير وشدها على النول كاللحمة والسداةِ محركاً

المكوك فيما بينها يمنةً ويسرةً متأنياً في عمله بارعاً في حركاته وكان في ذلك يصاحب العمل بالقول أمام الحضور والنظارة قائلاً: "لابأس فقد اخترت من الألوان أزهاها ومن الخيوط أقواها ومن آلة الصنع أجودها لتتناسب مع مستوى العمل ونفاسة الهدية". وتابع محركاً يديه ورجليه فيما يصنع ويحيك شارحاً كل خطوة أمام حضوره بدقة متناهية ليستمتع الجميع بما يفعل وما يبدع..

عارضاً كل ذلك في قاعة الأمير والحضورُ في شغفٍ بالغ وتقدير وإطراء واهتمام والجميع مشدود في انبهار ودهشة مأخوذين بكل ما يفعل ويبدع... والأمير يهز رأسه مشيداً ناظراً لحسن العمل بالرضى منتبهاً شأن الحاضرين والوزير الساحر يتخيرُ عبارات الثناء ليخلعها على النساج الحائك فتتجاوب عباراته مع ما يتلفظ به كل من الجمهور بصدى يَرِنُّ في أرجاء القاعة مجاملين موافقين لكن الصبي كان ينظر إلى كل ما يراه أمامه بدهشة أغرب واستفسارٍ أعجب.

ينظر إلى الأمـــير تـــارةً مســتغرباً اسـتغراقهُ واندماجه وتارةً يراقب الوزير الســـاحر وأخـــرى نحـــو الحضور بانبهارهم ودهشتهم، حتى كان أن قال الحـــائك: "الآن وقد انتهيت من عملي هذا أشـــكر لكـــم إعجـــابكم وسأقدم ما صنعت هدية لمولاي الأمير فتعالت الـــهتافات وكثر الثناء وعبـــارات الاستحســـان المغلـــف بـــالمديح والمجاملة..

لكن الطفل الصغير الـــذي كـــان مســـتغرباً أشـــد الاستغراب منفعلاً أشد الانفعال، مستهجناً ذلك العمل الذي لا يُرى والفعل الذي لم يتحقق، صادقـــاً فـــي أحاسيســـه ومشاعره، واثقاً من نفسه بأنه على طرف النقيض من كل هؤلاء. فما كان منه إلا أن صاح قائلاً: أنا لا أرى شـــيئاً سوى حركات لرجل أَوْ هَمَكُمْ بما يفعل.. فعلام الدهشـــة والانبهار؟؟. والعجب والابتسام والضحك؟؟. لا شك أنكـــم بلهاء؟؟ لا ترون غير الأوهام.. "وكأن علـــى رؤوســـكم الطير" فأُسقِطَ في يدِ الحضور وشعروا بالخزي من ذلـــك الصغير الذي أيقظ فيهم صحوة الجرأة وحســـن الانتبـــاه

وعدم الاقتناع إلا بما هو صادق وهو حقيقي وواقعي ملموس. من غير خوف أو رهبة أو تهديد..

وقد شعر عمرو لساعتهِ أنه يُرَدّدُ بصوتٍ منخفضٍ ثانية ما قاله وقتها...

القصة بدأت بحكاية... وعبارته الثانية التي كانت رداً على استحسان المدرس.. لا يا أستاذي ما كان ذلك عفو الخاطر فقط ولكنه نتاج التركيز وحصاد الانتباه والرفض لما هو كائن نحو ما يجب أن يكون..

وهنا علا التصفيق في صالة المسرح من جمهور الحضور معلناً ختام المشهد الأخير من مسرحية الانبهار فصفق مشجعاً لمسرحيةٍ أو قصةٍ أحب أن يشاهدها واقعاً صحيحاً فتجسدت أمامه بممثليها ومشاهدها فخرج والابتسامة تعلو شفتيه بالأمل في غدٍ سعيدٍ مشرقٍ.

أمانة الرسول محمد بن عبد الله (ص) في سيرته العطرة

بينما كان رجل الإنسانية ونبراس العفاف وسيد العرب والعجم محمد بن عبد الله (ص) يتوجه نحو الكعبة ماراً بقبائل العرب المتناحرة، إبَّان وضع الحجر الأسود في بناء الكعبة، وقد كان محمد (ص) يشغفه التأمل في خلق السموات والأرض.. والخالق الحقيقي للكون الواسع.. منزل المطر.. ومنبت الشجر.. ورب العرش العظيم الذي تنزه عن كل وصف، رب الأرباب ومرسل السحاب، وواهب الألباب، الله الواحد القهار الذي خلق محمد بن عبد الله (ص) هادياً للعالمين وخير الأولين والآخرين. وقد قال فيه سبحانه وتعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلِقٍ عَظِيم).

محمد (ص) الذي أصبح رسول البشرية ونبي الإنسانية، فأخلاقه في عصر الجاهلية نقية من كل دنس، بعيدة عن

الرجس والمعاصي، وهو الصادق أميـــن. فتلــك شـيم الرسول (ص)... ومن لا يحب التعرف على صفات شفيع البشرية والمسلمين المؤمنين؟!..

وذلك أنه كان يختلف بصفاته وعاداته وأخلاقه ومعاملاتـه وكل سماته عن أي إنسان آخر عاش على أرض الجزيرة العربية وتحسس ما تعانيه من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ومرارة الوأد ومجالسة الغواني والقيان ومنادمة الجلســاء في ليالي الطرب الحمراء، والعادات الموروثة الهمجيـــة من شرب للخمر وضرب بالقداح ولعب القمـــار وعبــادة الأصنام.

وتلك آلهة كانت لعرب الجاهلية كاللات والعـــزى ومناة الثالثة الأخرى.. وقد كانت الكعبة تغـص بأشـكال الحجارة التي تمثل هياكل الآلهة والتي لا تغني عـــن الله جل جلاله في شيء من حجارة صماء منحوتة، وهل مـن ينحت إلهاً بيده يكون طريقاً للعبادة والتقديس فذلك منتـهى الحمق وسذاجة العقل وسخف التفكير. فالله خالق الكـــون هو الواحد القهار، خالق الليل والنهار ومالئ الضرع رب

العرش العظيم، فالشمس تطلع من الشرق وتغوص في المغيب بمشهد رائع، والبحر يهدر بعبابه الزاخر وكل ما في هذا الكون له نظام دقيق محكم، أليس لذلك من خالق ومعبود، أبدع صنعه وأحكم اتقانه.. بلى فهو الله خالق كل شيء.

وهذا ما كان يدفع محمد بن عبد الله (ص) للتأمل والتفكير والبحث والاستقصاء عن كل الترهات التي حكمت عادات العرب في مجتمع كان الطغيان والكفر والفساد والحروب والتناحر، أولى تلك الأسباب التي لم يألفها وعافها منذ أن وجدها في مكة ولم ينخرط بها، ولم يتعامل معها، بل كان يرفضها ويبحث عن القيم السامية البديلة لما يراه سيئاً وقبيحاً في مجتمع الجاهلية.

ألا ترى أيها القارئ العزيز أن من يرفض مجتمعاً سيئاً ليجد ما هو فاضل ليتعرف إلى الخالق المصور والمعطى الوهاب.. فالله ذو الأسماء الحسنى.. وصفه بأنه على خلق عظيم.

فمحمد (ص) ولا شك يستحق أن يكون سيد البشرية، فقد عاش شبابه متأملاً عابداً متفكراً في خلق السموات والأرض، باحثاً عن الله في كل آياته ومحمد (ص) لم يسجد لصنم قط ولم يتعايش في الأجواء التي اعتادها زعماء قريش ومجمل العرب، وقد تحلى بالأخلاق الكريمة، وعلى رأسها الصدق والأمانة.. والأمانة أعلى مرتبة في أخلاق الإنسان. بيد أنه كان موضع الثقة، وموئل الأمانة والاستقامة وإليه يتوجه من أراد ذلك.

وقد تجسدت تلك الصفات فيه بعلاقته مع من سواه، حيث اختلف زعماء قريش وقبائل العرب في وضع الحجر الأسود في مكانه من بناء الكعبة بعد أن تهدمت وأعيد بناؤها، وكادت المشكلة توصلهم إلى الصدام والقتل والتقاتل كي يفوز من هو أجدر بالمكانة والرفعة والسطوة لقوة بشرف وضع الحجر في مكانه. وكان "اقتراح أبو أمية"[1] وهو تحكيم أول داخل عليهم.

---

[1] – من كتاب تأملات في سيرة الرسول: ص ٢٢-٢٣، للدكتور: محمد السيد الوكيل.

فلما انتهى إليهم رسول الله (ص) أخـــبروه الخـــبر فقال: (هلموا إليّ ثوباً[٢]) فأتى به، فأخذ الحجـــر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم رفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه.

والحقيقة التي لا خلاف عليها هي أن محمـــداً قـــد حسم النزاع الملتهب الذي كاد يقضي على منزلة قريـــش بين العرب، وحفظ عليهم وحدتهم التي كـــانت معرضـــة للانهيار وقد قبلوا تحكيمه بشوق أكـــثر لأنـــه الصـــادق الأمين. ومن الجدير بالذكر أن الرسول محمد (ص) كـــان يرعى الغنم وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبـــي (ص) قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت؟ قال نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة".

ورعي الغنم يحتاج إلى سعة الصدر وحسن الحيلـــة وطول البال وإذا فقد الراعي شيئاً من ذلك ضاق بغنمـــه فنفرها أو ضاقت هي به فنفرت منه، وفي هذه المهنة من

---

[٢] – نفس المصدر.

الصفات العظيمة التي يكتسبها من يؤديها أمـــور مهمـــة مثل: حسن السياسة والحرص علـــى الرعيـــة والانتبـــاه واليقظة. وكل هذه الأمور مجتمعة في واحدة مـــن أهـــم صفات الإنسان ألا وهي (الأمانة).

فالأمانة من أهم صفات الراعي الأمين، وحيث أنـــه مؤتمن على ما تحت يده فإذا لم يكن أميناً عرض رعيتـــه لكثير من المفاسد، وفقد شيء منها يؤدي للخيانة. ولـــهذا أراد الله عز وجل لكل رسله أن يرعـــوا الغنـــم ليقـــودوا أممهم على أساسها قيادة رشيدة.

وهذه الصفات واضحة جلية في حياة الرسول عليـــه السلام فكان يقظاً لكل ما يفعله أصحابه لا يرى مخالفـــة ويسكت، وكان يتفقد أصحابه إذا غابوا ويطمئن عليـــهم إذا حضروا ويعودهم إذا مرضوا وما أعظم وصف الله لـــه: (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

وفي حرص الرسول على أصحابه وأمتـــه أمانـــة كبرى ولذلك كانت أمته خير أمة أخرجت للناس، فرعـــي

الغنم وأمانة الراعي فيها يقود إلى أمانته في رعيته فيما بعد والحفاظ عليها وصونها.

ومن المفيد أن نذكر أن قوم الرسول قد سموه منذ صغره بالأمين، ويكفيه ذلك أن قومه كانوا يودعون نفائسهم وأموالهم التي يخافون عليها عنده، حتى هاجر إلى المدينة وأماناتهم لا تزال في بيته، وقد ترك علياً رضي الله عنه ليردها إلى أصحابها ويؤديها إلى من ائتمنه عليها.

والواقع أن الأمانة قد عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها لثقلها، وحملها الإنسان، والإنسان بطبعه فيه الخير والشر والحب والكره والمتناقضات جميعاً، فمتى كان يتحلى بالنبل والتسامي وحسن الأخلاق سمت به تلك الصفات إلى العلو والارتقاء نحو القيم السامية العظيمة. وإن كانت الرغبات الدنيّة الدنيوية تملك عليه إحساسه وتفكيره كان ذلك الإنسان مخلوقاً عجيباً لا يعترف بنعم الله فيفسد في الأرض وينحط إلى قاع الدنيا، وشهواتها فلا يصلح أن يتحمل عبئاً

أو يرعى أو يؤدي أمانة أو يَعِد بصدق القــول وشــرف الكلمة ولذلك قال الله تعالى: (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَـهُولاً) لأن بعض الناس يؤتمنون فلا يرعــون أماناتــهم ويخونــون ويخدعون، ويجهلون على غــيرهم بظلمــهم وعدوانــهم فيصيرون كما قال الله آنفاً في الإنسان.

والله سبحانه في الآية الكريمة، يصف قيمة الأمانة وعظـم المسؤولية عندما عرضـــت علـــى الســموات والأرض والجبال والرواسي، فأبين أن يحملنها، وذلك لما للأمانـــة من قيمة كبرى ولما بِحملها والمحافظة عليها من مكانـــة مهمة، وقد عرضت على الإنسان فحملها، والإنسان أهــل للمسؤوليات فقط للصالح المصلح، والراعي الأمين لكل ما يوكل إليه فيحفظ ويؤدي ويصون وهو صاحب الأخـــلاق الحميدة والسيرة الكريمة.. ومَنْ غير محمد بن عبـــد الله (ص) كفئاً لذلك وقد حمل رسالة السماء رسالة التوحيـــد من رب العالمين عن طريق جبريل عليه السلام، وأداهـــا حق أدائها وكان لتلك الأمانة مآثرها على العــالم اليــوم، ونشر دين الإسلام في أقطار الأرض وبين جميع الأجناس من البشر، ولو لم يحفظ تلك الأمانة ويسعى لها ويــهاجر

من أجلها ويتحمل أذى المشركين والكفار ويقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله لما كان دين الإسلام يشمل المعمورة ويسكن أفئدة المخلصين لدين الله سبحانه وتعالى، وقد قال الله تعالى: (فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤمَر وأَعرِضْ عَن المُشرِكِينْ).

فأمانة الرسالة ونشر الدعوة والصبر على المكاره والجهاد في سبيل الله كان الطريق لخير العالمين، والرسول محمد (ص) من أولي العزم من الرسل، فهو خاتم الأنبياء وآخرهم وأفضلهم وقد صعد إلى السماء ورأى ما رأى لأنه أهل لحمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، وقد قال الله فيه: (وَلَو كُنْتَ فَظَّاً غَلِيظَ القَلبِ لا نَفضُواْ مِنْ حَولِكَ).

ولا يخفى عنا قصة الرسول وزواجه من السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين التي اختارته ليذهب بتجارتها إلى الشام بعد أن قالت لعمه أبي طالب (أعطيه ضعف ما أعطي رجلاً من قومه) فخرج عليه الصلاة والسلام مع غلامها ميسرة، فلما رجع بالتجارة من الشام أرسلت خديجة مولاتها "نفيسة" بعد أن أعجبت بأمانة الرسول، فقالت له نفيسة: "ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما

أتزوج به. فقالت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والشرف ألا تجيب؟ فقال (ص): من هي؟ قالت خديجة بنت خويلد... فوافق وتم الزواج ولها من العمر أربعون سنة وكان عمره خمس وعشرون".

وخِصَال الرسول محمد عليه الصلاة والسلام هي التي كانت طريق الحب والمودة من الناس إليه.، ونحن المسلمون نسير على هدى رسالته وحسن معاملته وأمانته المتميزة، فمن أراد بلوغ التبوء والارتقاء والسمو والعلو سما بأخلاقه واتخذ من أخلاق الرسول محمد (ص) هادياً له ونبراساً ليجد له بين الناس المحبة وحسن القبول والإقبال.. وهكذا.

والأمة الإسلامية كما قال الله تعالى: (كُنْتُم خَيرَ أمَةٍ أُخرِجَتِ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعروفِ وتَنهُونَ عَن المُنكَر) وشرف الانتساب إلى الأمة الإسلامية لا يعاد له شرف بين الأمم فقد كرمها الله بنبيها المرسل والهادي الأمين وقد قال الشاعر في سيرة الرسول العطرة الأبيات التالية:

لله دركَ كـم لا قيـتَ مِـن عنـــتِ

كي يُصبحَ الدينُ فوقَ الأرض مُنْتشـراً

آمنـت بـــالله إذ حُمّلْـــتَ أعْبَـــاءً

لم تألُ جُـــهْداً وقــد أعلنتـــها جَـــهَراً

صُنْتَ الأمَانةَ عبرَ الدّهْــر فـــازدهرتْ

من هَدْي سيرتكَ الغَــرّاء مـــا بَـــهَرَا

وأنا لعلى خلق عظيم



نهاية المطاف

أقلعت الطائرة في الساعة الثانية من أرض المطار في طرابلس الغرب ظهراً نحو أوروبا تحمل عليها عمالاً من دول أوروبا الشرقية لشركات كانت تعمل في ليبيا وانتهت مهمتهم بعد إنجاز أعمال الشركات عائدين لبلادهم متخمين بالبضائع والهدايا ودفاتر الشيكات في تلك الفترة من الإنجازات الحضارية والعمرانية الشاملة في كل البلاد ولم يكن على ظهر الطائرة سوى اثنين من الشرق العربي ضمن ذلك الكم الهائل من رعيل العمال العائد نحو بلاده في ذلك اليوم.. وقد تجاوزت الحرارة في أرض المطار نسبتها المعتادة حتى بلغت أكثر من أربع وأربعين درجة مئوية... فالشمس المحرقة والرطوبة العالية والوقوف في قاعة المطار مع ذلك الازدحام وتلك الأعداد التي تربو على الثلاثمائة مسافر... كل ذلك ساعد على ارتفاع الحرارة فوق المعقول وصار الجو خانقاً قابضاً يثير الضيق ويبعث

على السأم والانعتاق من ذلك المكان حتى جاء الفرج بعد ساعات طوال من الوقوف وتـــأخر الطـــائرة.. فتدافـــع الركاب فرادى وجماعات إلى سلم الطائرة بعد إجــراءات الجوازات والشحن والتفتيش كي تقلهم الطائرة اليوغــــو سلافية إلى صوفيا عاصمة بلغاريا في أوربا الشـــرقية... جلس باسم أحمد أبو الوعر بصحبة زميله سعيد السيد في مكانين متجاورين متلاصقين في الدرجة السياحية حيـــث المقاعد الأولى والتي تتقدم الأجنحة ليسهل النظـــر إلـــى الفضاء الفسيح الواسع والبحر الممتد مـــن تحتـــهم إلـــى اللانهاية فهما لا يَرَانِ بعد الإقلاع إلا المـــــاء والفضـــاء والسماء. كثرت الجلبة والحركة في الطيارة بداية حتـــى استقر الجميع وبدأت المضيفات بعـــد وضـــع الأحزمـــة بتوزيع العصائر وحبات السكاكر وبيع الدخان وأنـــــواع المشروبات الكحولية والروحية وبعض زجاجات العطـــر الفاخرة.لم يكن يشغل بال الزميلين ذلك الذي يُقَدَّمُ ويُبَـــاعُ بقدر ما انشغلوا بما قاله المضيف الأول حـــول أســـاليب السلامة واستعمال الأدوات عند الخطر كتلك التي توضع للتنفس ثم المزلاج الذي هو بديل لسلم الطائرة وما إلـــى

ذلك.من نصائح قدمت بشكل سريع وعلى عجل وكيفية استعمال وسائل التكييف والتهوية بالإضافة إلى الإشارة لوجود المجلات والصحف اليومية في جيوب المقاعد التي يجلس عليها الركاب... جاءت إحدى المضيفات بأنواع العصير والبيبسي متقدمة من الراكبين الجديدين على طائراتهم وهما مستغرقان في الأحاديث حول بداية الرحلة ودواعي سفرهماء فهمست للأقرب إليها باللُّكْنَةِ الإنكليزية ليأخذ كوباً ففعل وتناول زميله كوباً آخر...وهما قد اتفقا على السفر وقضاء الإجازة خارج مكان عملهما والتوجه نحو أوروبا لقضاء المدة المتبقية من إجازة عطلة الصيف سائحين في ملك الله الواسع. فالسفر والترحال والتجول كل ذلك من صميم الرغبات الملحة نحو استكشاف المجهول ومشاهدة الدنيا على حقيقتها والتمتع بجمالها أينما كان ذلك موجوداً... تلك هي الجولة الثالثة التي قاما بها معاً فالأولى كانت في تونس الخضراء والثانية في مصر والثالثة هي هذه نحو أوروبا وبداية إلى بلغاريا... أولاً تَحَدَّدَ يوم سفرهم بعد أسبوع تقريباً ريثما يُنْجِزُ كل منهما إجراءاته الوظيفية

والانتهاء من الامتحانـــات والمراقبـــة فـــي اختبـــارات الشهادات العامة، وتحضـــير الأمتعـــة اســـتعداداً لليـــوم الموعود. ثم إنجاز التأشيرات على جـــوازي ســـفرهما وتذكرتي الطائرة وكانت هي الأولى وقبل كل شيء لـــهذا كان لا بد من تحديد الوجهة وإنجاز الحجز والتأشـــيرات. ذهبَ سعيد السيد قبل مغادرته بنغازي (نحـــو طرابلـــس الغرب) إلى صندوق بريده أولاً ليستطلع ما فيه كـــآخر عمل يقوم به منتظراً زميله باسم أحمد حتى يـــأتي مـــن مدينة إجدابيا في عمق الصحراء، التي يعمل فيها ضمـــن حقول النفط كي ينـــزل عنده تلك الليلة وقد انتهى كـــل شيء ولم يبق سوى المغادرة بالطـــائرة الداخليـــة مـــن بنغازي إلى طرابلس ومن هناك الطائرة اليوغوســـلافية التي ستغادر لأوروبة.. فتح سعيد السيد صندوق بريـــده فتفاجأ ببرقية في صندوقه تطمئنه عن جميع أفراد العائلة وأحوالهم وأنهم بخير وهم ينتظرون قدومه إليـــهم فـــي إجازته الحالية حتى يكمل إجراءات الخطوبة التي تمـــت مع الفتاة الجميلة والتي تتصـــل برابـــط النســـب بيـــن العائلتين.. لم يصدق سعيد السيد هذا الأمـــر واســـتهجنه

كثيراً وضرب كفاً بكفٍ فمتى كان لرجل في هذا الزمان أن يطلق العنان لأهله حتى يتولوا عنه مهمة الخطبة والزواج من فتاة لا يعرفها ولايعرف عنها شيئاً أبداً ولا حتى رآها مطلقاً، هَزَّ رأسه مستغرباً ولَمْ يُبْلِغْهُمْ برغبته في أن يفعلوا ما فعلوا.. ترى متى كان هذا الأمر؟ ومن الذي أو كلهم بهذه المهمة؟ وكيف اتخذوا قراراً من تلقاء أنفسهم عنه دون أن يعلم؟ حتى أصبحت إجراءات الخطبة والزواج بالمراسلة وعن طريق الرسائل والبرقيات وكيف لهم أن يدركوا مواصفات الزوجة التي سيقترنُ بها مستقبلاً.. لا بد أنهم اختاروا عنه وقطعوا بأمرهم وها هي النتيجة موجودة بكلمات البرقية المقتضبة ولا شك أنها مأساة حقيقية سيكون هو أحد ضحاياها عما قريب. واستغرب أكثر حين قال: (ألا زلنا بعصر التخلف والجهل والتصرفات التي عفى عليها الزمن وطوتها سجلات التحديث إلى غير رجعة حتى تعود ثانية لتلبسني ثوبها وتخلعه على جلدي دون نقاش أو اعتراض؟!).. قرأ سعيد البرقية ثم أعاد قراءتها ثانية غير مصدق لما يقرأ ثم تحقق من كل حرفٍ وكلمة فيها مستشفاً من

خلالها كُنْهَ المضمونِ والغاية وإن كانت تتميز بالإبهام وفرض الأمر الواقع وعدم المناقشة لكنه قرأها مرات أخرى: (نحن بخير والجميع ينتظرون قدومك.. لاتبطئ بالعودة إلينا حتى نكمل إجراءات الزواج.. هي عروس جميلة وفي الثانوية... وابنة أبو عزيز... وافرح يا عم وسنوافيك بالتفاصيل لاحقاً عند قدومك) قال سعيد: (أي تفاصيل وأي أبي عزيز وهم كثر وأعرف منهم العشرات. ثم هي صغيرة ولا أعرف عنها شيئاً). تلك هي التي أرسلت البرقية دون تدبر وتفهم متسرعة كانت شقيقته التي نزلت من أمريكا لدمشق لزيارة الأهل فصادف وجودها مع شقيقتها الكبرى سعاد في بيت أخي زوجها الذي عرض ابنته للزواج من سعيد السيد شقيق سعاد فرحبت سعاد بالدعوة مجاملة ليس إلا وكأنها رتَّبَتْ تلك الدعوةُ والمناسبة لمثل هذا الغرض وما صدق والدها حتى قال: (إذاً نقرأ الفاتحة يا سعاد). وشرع ينفذ ما فعل ويؤكد ما يريد وطلب من زوجته أن تطلق الزغاريد بهذه المناسبة السعيدة فوقع سعيد بشرٍّ ما رتبَّ أبو عزيز من غير علم ولا معرفة وعن طريق أهله دون سابق إنذار

بفخ محتال في شر مصيبة لا تكون إلا لمغفل ســـاذج لا يعرف من الدنيا "الخمسة من الطمسة"...وقد حــثّ أبــو عزيز على تسريع الإجراءات وسعى لنيل مـــراده فـــي خطية عاجلة كالخبطة الصحفية التي كان يسمع عنها في مسلسلات التلفزيون والسينما. إنه صاحب مـــآرب وقـد وقعت الطَّامةُ الكبرى على رأس سعيد وكما يقـــال: (يـــا غافل إلك الله) ذهل سعيد من هذا وقد خرج من صالـــة صناديق البريد وهو يمشي نحو بيته والمسافة ما بينـــهما قريبة وظل يقرأ ثانية وثالثة ورابعة مشدوهاً مندهشاً فـــي غير توازن وقد رآه زميله باسم قادماً حين ألقـــى عليـــه التحية فلم يسمع ردّه فاستغرب باسم من تجاهلـــه وظـــن شيئاً أصاب العلاقة بينهما حتى اقترب منه وحرك كتفيـــه منبهاً مسلماً ثانية.. استيقظ سعيد من ذهوله وصحا مـــن غفلته وسرحانه ونفض يديه من هذا الأمر معتذراً لزميله عن ذلك الشرود طاوياً تلك الصفحة إلى حين وقال سعيد: (أنا جاهز يا باسم سنقضي ليلتنا عندي وغداً نغادر إلـــى طرابلس بإذن الله...) أجاب باسم: (ما بال حالك لم أعهده على هذا الوضع...؟أخبرني) قـــال ســـعيد: (إن أهلـــي

يطلبون قدومي لزيارتهم ولكن ليست لي رغبـــة بذلـــك وسنتوكل على بركة الله وهذا القرار الأخير... هيا ندخل بيتنا... ثم هل أنت جاهز أيضاً...؟!) أكد باسم بإيماءتـــه بالموافقة. وهما يجلسان على مقعدين متلاصقين داخـــل الطائرة. ولا زال أمر الخطوبة يشغل بـــال ســعيد وإن حاول أن يُبدي غير ما يعلن لكن باسم لم يحاول أن يُقحم نفسه في أمور زميله الشخصية تاركاً ذلـــك للظـــروف عندما تحين. وقد لاحظ على زميله اســـتمرار الشـــرود والقلق، ولكن ما باليد حيلة. أعلن ميكروفون الطائرة عن وصولها فوق أجواء إيطاليا ولم يبق إلا القليل من الوقـت لدخول أجواء بلغاريا. تأرجحت الطائرة في الفضاء لشدة البرق والرعد وسوء الأنواء في أوروبـــا.. يـــا ألله فـــي الشمال الإفريقي الدنيا تغلي وتشـــتعل حـــرارة وفـــوق إيطاليا الدنيا تعصف وتقصف الرعد وتزمجر غاضبـــة والزمن هو شهر تموز من السنة في فصـــل الصيـــف. ترجل الركاب لأرض المطار متوجـــهين إلـــى الصالـــة والمطر المنهمر بغزارة يعطل الرؤيا خلال المسافة التـــي سيقطعها الركاب نحوها... انتهت الإجـــراءات وخـــرج

الزميلان نحو أقرب فندق بالمدينة بعد أن استقلا سيارة أجرة من أمام المطار.

البلاد جميلة والأشجار الخضراء طوال أيام السنة تبهج النفس وتريح النظر والأمطار لا تنفك تهطل بين الفينة والفينة وهذا ما يساعد على جمال الطبيعية واخضرار الأشجار واستمرار البساط السندسي في كل الشوارع والحدائق مهما امتد.

قضى الزميلان في أوربا يتجولان بين دولها الشرقية قرابة شهرٍ يعبران دولها من دولة إلى أخرى وكانت محطتهما الأولى صوفيا في بلغاريا ثم انتقلا إلى هنغاريا وبولونيا وعادا إلى بلغاريا فيوغسلافيا لتكون هذه المرحلة الأخيرة عند العودة إلى أعمالهما في الشمال الأفريقي. بلغت سعادة الزميلين ذروتها خاصة في بلغاريا فهي محطُ أنظار الشعوب المحيطة بها، وهي تقع على البحر الأسود وفيها مدن جميلة وسياحية للاصطياف وتستقبل أعداداً تفوق الخيال من الزوار والسائحين خاصة في مدينتها (زلاطنة) التي يرتحل منها السائحون

نحو الجبال المرتفعة والغابات التي رتبتها يد الإنسان بغاية الفن والإتقان حيث شاطئ الرمال الذهبي الذي يستقطب أنظار المصطافين والسائحين عندها قال باسم (لا بد لنا الآن من العودة وقد حان الوقت يا زميلي فما رأيك؟) انتظر سعيد السيد برهة ثم أجاب (لا أخفيك أنني في غاية السعادة وليست لدي الرغبة في الذهاب لكن وقد حان الوقت والميعادُ فلا أقل من الاستعداد حتى نرجع) قال باسم: (ستكون عودتنا كما بدأنا بالقطارات عبر الدول التي قطعناها فهي متعة للزائر كأنها رقعة خضراء تتصل مع بعضها دون انقطاع اللهم إلاّ الأنهر العظيمة التي تخترقها كالدانوب) قال سعيد (إذن توكلنا على الله ومن يوم غدٍ تبدأ رحلة العودة يا باسم) .

وصلا طرابلس الغرب وافترقا على أمل اللقاء عندها استقل باسم الحافلة الكبيرة وركب سعيد الطائرة الداخلية.. قضي الأمر ووصل سعيد باب بيته وأضاء المصابيح ودقائق ثم قُرِعَ الباب وكان ذلك هو جاره خالد الكنعاني.. فتح سعيد الباب فوجده قبالته فقال له: (أهلاً يا

جار تفضل.. تفضل..) واستزاد في الترحيب، كـــان رد خالدٍ: (أشكرك لكن هناك أمرٌ لا بد من اطلاعك عليـــه)، قال سعيد: (ما هو يا جار)، أجابه: (زوجتك فـــي بيتـــي بصحبة عمها وزوجته أردت إخبارك حتى تستعد وهـــم بزيارتي منذ أسبوعين وقد كثرت التســـاؤلات ولكننـــي خمنت أنك على سفرٍ بقضاء إجازتك خارجـــاً ولكـــن لا أعلم أين..).

صدم سعيد.. فما الذي يحصل في هذا الزمـــان.. تلعثم ولم يستطع الإجابة فهو لم يتزوج أصـــلاً، تذكـــر عندها تلك البرقية التي جاءته قبل المغادرة وصعق أكـــثر ثم قال: (إذاً هي عندكم منذ فترة.. أسف لـــهذا التـــأخير سأوافيك بعد قليل وأشكر لك لطفك عما صنعت وعلـــى حسن استضافتك لزوجتي العزيزة وأهلها الكـــرام!؟ يـــا خالد). ذهب خالد وتبعه سعيد بعد أن أصلح من قيافتـــه وشأنه وسرَّحَ شعره وتناول زجاجة العطرِ من حقيبتـــه ينثر منها على وجهه وثيابه ما يليق بهذا المقام المحرج.

ثم خطا خطوتين وتوقف وأعاد الكرة ثانية وثالثـــة

ورابعة وراودته أفكار الشياطين أن يخلع مبتعداً من هذا المكانِ وينسحب بعيداً عند أحد الأصدقاءِ أو الفنادق ولكن المسافة ليست بعيدة عن الشقتين فهي في تلك العمارة المقابلة ثم قال: (واحدة بواحدة إن جاءت هي أذهب أنا)، ودخل في تلك الدوامة واجتاحته الصراعات حتى سمع من شرفة شقة جاره خالد صوتاً يناديه.. : (أسرع يا سيد سعيد فالأسرة بانتظارك)، عندها دخل سعيد المصيدة ولا بد من أن يتعرف على زوجته وأهلها قبل زواجه بها.. فتح خالد الباب مستقبلاً جاره العريس بالترحابِ والعروس في الصدارة داخل الصالون.. ابتسمت وتابع سعيد دخوله مسلماً على الحضور واحداً بعد الآخر.

قضى العروسان تلك الليلة في حوار عقيم وقد أفرغت جعبتها بالكامل حين قالت: (أُكرِهتُ على المجيء والزواج بك والسفر إليك)، قال: (ما الذي أكرهك يا حلوتي؟)، قالت له: (سطوة الأب وعناد الأم وارتباطي بغيرك وظروفي الصحية النسائية..) ثم عقبت..: (افعل ما تراه مناسباً)، أقنعته بحديثها وأقنعها بجهله بها

واستغرابه من تلك المصادفات الغريبة في هذا الزمـــان الأغرب وقال: (كنا نسمع عن الزواج بالإكراه قديماً جداً أما اليوم فها نحن نعشيه واقعاً مجســـداً فـــي شـــخصك الكريم. لكن حدثيني لِمَ والدك رتَّبَ لهذا الزواج ووضعني وإياك في هذا المأزق؟).

قاطعته: (أبي كان في ضائقة مالية وشقيقتك وعمي في غنى فاحش ووالدي يطمع بالثروة والمال وأنـــا فـــي أزمة غريبة أحتاج لإجراء عملية تنظيماً للعادة الشـــهرية وكل هذه الأمور مجتمعة وزيادة فهو يقدم عروســـاً لـــك متفضلاً متكرماً عليك وعلى أهلك وهذا هو الواقع). قـــال سعيد: (ما الذي أسمع)، قالت عروسه الـــذي لا يعـــرف اسمها حتى الآن: (إنها الحقيقة)، فأجابها سعيد: (إذاً هـــو الزواج بالإكراه والتفضل أيضاً)، قالت العروس: (وَحَـــلُّ المشاكل... فلا تغضب وإن شئتَ أعودُ، لكن توقع نهايتي عند رحيلي..والأمر بين يديك ـــ وتـــابعت ـــ واســـمي نهاية) قال سعيد: (وتلك هي أيضاً نهايتي يا نهاية..).



مُصادَفَةٌ عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ

امتطى إحدى الحافلات الصغيرة التي تمر كل دقيقة تقريباً من أمام موقف غير مُعَدٍ للوقوفِ من ظاهرِ دمشقَ ومن إحدى ضواحيها الغربية القريبة جداً إليها قاصداً قلب المدينة التي تعج بالحيوية والحركةِ والنشاط... فتفاجأ بسيّدةٍ قبالته تتوسط إحدى المقاعدِ الأمامية حيث لا يوجد غيرها في الحافلة فجلس قبالتها وهكذا كان يجلس دائماً قريباً من السائق لكي يدفع له من دون أن يُكلِّفَ غيره بدفع الأجرة عنه وتلك عادة كان لا يستسيغها من كثير من الموجودين في أي حافلةٍ يكون فيها حيث يجلسُ الصغيرُ في الخلف دافعاً للمُسِنّ المتقدم في العمر بكل فظاظةٍ ورقةَ الخمسمائة ليرةٍ ليعطيها للسائق مترفعاً عن أن يفعل ذلك بنفسه... جاعلاً لشخصه عظمةً وأُبَّهَةً فارغين وشكلاً وضيعاً من أشكال التباهي والتنطع المقيت المزري في حافلةٍ يمكن لأي راكب كان أن يحتاط قبل الصعود إليها بتهيئة المبلغ الزهيد في يده سلفاً ليضعه بعد

ذلك في يد السائق حال امتطاء السيارة.. وهذه كانت عادة خالدٍ في كل رحلةٍ قريبةٍ أو بعيدةٍ من دمشق لظاهرها أو من ضواحيها إليها أو في داخلها ... وهكذا جلس خالد في مقعده وأخرج ورقة الخمس ليرات من محفظته التي كانت في يده ليدفعها للسائق، إذ ذاك ناولته تلك السيدة التي قبالتهُ ما بيدها لينقدها للسائق كذلك بدوره، ففعل... ولكنه كمن يحدث نفسه في سره إذ قال: (أنا لا أُنكرُ أنني استأنست بوجودها وشعرت برهبة تعتريني وهيبةٍ تتملكني وخفقةٍ في قلبي غريبةٍ جداً تتسارع متواثبةً في صدري فماذا أَلَمَّ بي...؟! وما الذي أرهبني؟!.. وكيف طواني ذلك الشعورُ؟! في غفلةٍ مني). رُغمَ أن شريط تسجيل جهاز مذياع سيارة السائق يتعالى متواصلاً بالهدير مغالياً في النفير زاعقاً من غير احترامٍ للحضورِ يضج كجوقةٍ تزعق في مأتمٍ أو فرقةٍ غجريةٍ تنفخ في مزامير الشيطان... إنها جلبة وكأنها حَلَبَةٌ للسَّباقِ من كل سيارةٍ يعتليها سائقٌ ليظهر ما لديه من قدرةٍ على اختيار تلك الأغاني الهابطةِ المسفّةِ في السَّذاجة الرخيصة الكلمات عجيبة اللحن الصاخب العاصفةِ بالذَّوْقِ، غير الآبهة

باحترام الحضور وانسجام الجمهور وقد تداعت أفكـــاره،
واستمرَّ يحدث نفسه: لا شـــك أنـــها فرصـــة للمنافســـة
والصراع... حقاً إنه صراعٌ آخذٌ بمنـــاحي عديـــدة فـــهو
وحشٌ مفترسٌ آكل عقول أولئك المتبـــاهين فـــي مجـــال
التنافس في طريق ضاق أحياناً أو كاد لا يتســـع ســـوى
لسيارة للمرور فيه إذا ما تجاوز سائق آخر هذا الدرب أو
ثالث أحياناً متبختراً بركابه مسرعاً لا يرعـــوي... هـــذا
والغرور والتباهي يتجاوزان حـــدَّ الاســـتهتار بـــأرواح
المتأرجحين فوق جنون السرعة والمســـتهترين بـــالأنفس
والأرواحِ والطريقُ يتلوى متعرجاً فـــي مســـاره أحســـبه
خمسين ثعباناً اتصلوا معاً في توافقات منسجمة في شـــكل
التعاريج والمنحنيات وفي هذا الدَّربِ الملتوي باستمرارية
متعاقبة لا تفسح للماشي حرية الخطى ودوام الاســـتقرارِ
بالمسير فيندفع كل سائق سيارةٍ بركابه هـــادراً بوحشـــية
مسعورٍ أقصى ما يستطيع فيما لا يفســـح مجـــالاً لذلـــك
فيتأرجح الركاب يمنةً ويسرةً بتناغم وتناسق مع تـــأرجح
كل سيارةٍ في زحمة الانطلاق بصعوبة المرور والخطـــرُ
يدهمُ الجميع ولا يكاد يستقر راكبٌ مكانه حتـــى يـــنزلق

نحوهُ جَارهُ وتبدأ الكرة عكس ما كان ما بين الجميع ولكن الأنكى من ذلك أن السائق لا يترك فرصة فيها مجالٌ لكبح جماح سيارته إلا ويفعلها حيال كل خطر داهم فينقذف من في الخلف باندفاعٍ عن غير قصد نحو المتقدمين في شـــر ارتطامٍ وأذكر أنني ما ركبت مرةً سيارة من تلك الحافلات إلا وشعرت أن معدتي ستنقذف من جوفِـــي أو ســـينخلع ظهري وصدري لكثرة ما أعاني وجميعِ الركابِ المساكين في هذا المأتم الجنائزي من هؤلاء وأولئك أمثال الشـــباب الصغار من السائقين حتى نترجل ثم نصعدُ أخرى وتبـــدأ الحكاية ثانيةً وثالثةً كل يومٍ... فالصراع في هذا المجـــال والمضمار بلغ أشده والمنافسة لا تتهاود في أي منـــها زد على ذلك أشرطة الكاسيت التي أصبحت تُجذّرُ فينا العنف والسطحيةَ والصَّخَبَ والضوضاء وعدم الانسجام والسباقُ يحكمنا من ناحية أخرى لشروطه المفرطة في الاســـتهتار بالأرواح والحيواتِ والأشخاص.

ولعل الخطورة تبلغ مداها الأبعد عند السائق وقتمـــا لا يجد ما يعيده للبعض من دَرَاهِمَ يدفعـــها لمـــن نقـــدوه أوراقاً مالية كبيرة إذ يضطر لعرضها على زميل آخر من

مهنته علَّةُ يجد لديه ما يخرجه من محنته التي وقع فيـــها فيتجاذبان أطراف الحديثِ والحـــافلاتُ فـــي صراعـــها متجاوزة كذلك كل الأعراف القيادية والأخلاق المرعيـــة في أساليب السياقةِ والقيادة.

هكذا نحن كل يوم بل كل ساعة أو بعض الســـاعة في صراعٍ مع الموت والحياةِ وكثيراً ما تعالى من البعض صوتٌ أو دعاءُ أو نداءٌ... على مهلك يا أخـــي أو... يـــا ساتر... يا الله... رفقاً بالقوارير.... يا أخي طول بالك... ارحمنا من هذا الضجيج والجنون.. خفف السرعة... على إيش العجلة؟.

وهذا الذي يمكن أن يقال ربما يكون نادراً إذا نـــدَّ عن البعض في لحظة خوفٍ فالسائقُ يحسب نفسه أمينـــاً على الأرواح والأنفس ويجوز له أن يحشر رُكَّابـــه فـــي (خانة اليْكّ كما يقولون) أو أن يُلقمهم لسعير الجنون أو أن يصرعهم في حادثٍ أليم... أليس هو السائق المتصـــرفُ بأمور الأرواح والراعي الأمين؟ أليس من حقه أن يُخرسَ الألسن؟. ويكم الأفواه وكثيراً ما سخر من بعض الركـــابِ

إذا تفوه أحدهم بتنبيه أو تلميح أو تنكير. فيجيبهم (أنت ما دخلك... تع سوق مكاني يا فهيم...) أو (شو فهمك بالقيادة يا حضرة) وربما أوقف الحافلة غاضباً نكاية بمن تكلـــم وكأنه يقول (أنا ربكم الأعلى) فيتدخل البعـــض لمعـــاودة قيادته مستلطفاً إياه مجاملاً فينتفخ ذلك الســائق مســتعلياً متباهياً مغروراً هائماً بأوهامِ العنجهيةِ مفتونــــاً بجنونـــه الأرعن وقيادته الهمجية مما يتيح له بعد ذلك من صمـــت الحضور... الاستزادة في الغرور وهكـــذا يتحكـم هـــذا المعتوه بالأرواح والأذواق والحريات صلفاً قميئاً بما يفعله ويتصرف به... حين أسرف وغــــالى... وعـــلام نبقـــى صامتين في نفق الســائق المظلـــم... الملـــيء بـــالرعب والخوف وامتهان الإحساس والأجناس والناس...؟).

قال خالد ذلك فسمعته السيدة التي قبالته وهو يتمتـــم بصوت خفيض مما عاناه وجميع الركاب فــــي الحافلـــة آنذاك.

فردّتْ عليه بصوتها الرخيْمِ المفاجئ وبلهجةِ السيدةِ المترفة المثقفة... (طب نفساً.. وهون عليك حقـــاً كلنـــا

نعاني من هذا الذي تقوله وتلمسه وتلحظه واقعاً ملموساً وتصرفاً ممجوجاً...) وقد مدت يدها لتغلق النافذة فأسرع خالد وقام بالمهمة فتلامست الأيدي والتقَتْ النظرات للحظات حَرِجَةٍ أَزَّمَتْ المشاعر وحَفَّزَتْ الأحاسيسَ وكأنها تحدثه عن أشياء هي في حسابه طُوِيَتْ منذ زمنٍ بعيد ورغم أنه يكبرها بالسن ويعيش لظروفه الحياتية والتزاماته ومسؤولياته وارتباطه بعمله بالخارج إلا أنها لاحقته بسؤالها... (هل تعمل...)، أجابها: (نعم) واكتفى بذلك منهياً الحديث فلاحقته بسؤال آخر: (وما نوع العمل يا ترى...) تململ لحظةً ثم اضطر للإجابة: (أنا مدرس...) ثم قالت: (وفي أي مدرسةٍ هنا؟) قال متابعاً: (أنا لا أدرس هنا الآن أنا أعيش الاغتراب وما هي إلا إجازة أقضيها في أرض الوطن حتى يحين موعد العودة والسفر إن شاء الله).

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد عندما صارحته بتذمرها وقلقها من تلك التصرفات التي لاحظتها وشق عليها أن تعيش هذه الإرهاصات الاجتماعية كل يوم مثله من تلك الأنغام التي تصدع الرأسَ في كل سيارة وحافلة

وتلك السرعة الجنونية وذلك العبث الصبياني وتلك التصرفات التي يعانيها كل راكب من البعض أثناء سير الحافلة... وهنا عقب منوهاً عن الأدْهى في كل ما يثير الحفيظة حول التلوث البيئي الذي يجتاحُ السعادة ويتلف الصحة وقد نفثت الحافلة التي تتقدمهم بهبائها الأسود ودخانها القاتل فكانت الصدمة... وامتلأت السيارة بما نفثته من دخان تلك السيارةِ الأخرى ورغم ذلك علَتْ الابتسامة على بعض الشفاه إذ قالت السيدة: (شَرُّ المصيبة ما يضحكْ؟!) وهنا سألها عن اسمها فأجابته أن اسمها رانيا قال لها: (جميل هذا الاسم ويسعدني أنني التقيت بك يا سيدتي في هذه الدقائق اللطيفة).

عقبت رانيا على ما قال بصوت الأنثى الجذابة الهادئة المتزنة وقد نفذت كلماتها لأحشائه قبل مسامعه: (وهل من لقاء يا خالد؟!).

بادءها بجوابه حين أسعفته الكلمات التي أحب أن يذكرها فقال: (لا بأس في ذلك يا سيدتي... ولكن هل سيتسنى لي أن أفعل مثل هذا رغم كل الظروف وقد جلَّلنا هذا الدُّخان الضبابي مكتسحاً كل مكان... فالجو قاتم ملَّوثٌ ممتدٌّ في كل اتجاه...

ألا ترىٍ معي صدق ما أقول؟!. آمـــل أن تتحقــق أمانينا مستقبلاً بعد أن تتقشع الرؤيا الضبابية في جو تشبَّع بدخانِ عوادمِ السياراتِ فإلى ذلك اليوم آمل اللقاء وأظـــن أننا سننتظر حتى ذلك الحين لقاءنا يا عزيزتي).



المحطة الأخيرة

اختلطت الأوراق ولم يعد بالإمكان الفصل فيما بينها وقد وصل القطار المحطة الأخيرة في رحلته معلناً بصفارته الجريئة جداً التي تدوي وتوقظ النيام من غفلتهم والشاردين من شرودهم وهروبهم أن الوقت قد حان..فماذا بعد؟! وعلى الجميع الترجل ليبدأ رحلة جديدة مع ركابٍ سيصعدون إليه قافلاً نحو العودة إلى محطته الأولى معيداً كل مراحله واحدة واحدة في نظام دقيق ثابتٍ لا يتغير ولا يتبدل وتلك هي سنة الحياة عندما تغلق أبوابها لتبتلع في جوفها من رحل وتهلل لمن جاء

أيقظه الحنين لأمه وقد ماتت منذ عشرين سنة.. صحا في منتصف الليل وهو يحسب نفسه في السادسة صباحاً.. أيقظه صوتها الآتي من بعيد وكأنها خيالاتٌ تلوح أمام وجهه أو صورةٌ غير واضحة المعالم تتجسد في أحلامه وها هي تزوره لأكثر من ليلةٍ تشير إليه بشيء وتنبهه إلى أمرٍ لكن رافع لا يعي من ذلك مغزىً ولم يفطن أو

حتى يدرك فحوى الأمر الذي لابد لـــه أن يصــل إلـــى معرفته مستوضحاً بأسئلة يطرحها على نفسه: (يا تـــرى ماذا تريد أمي من ظهورها في أحلامـــي هــذه الأيــام خاصة؟.. وأي شيء ذاك الذي تنبه إليه؟.. وقــد مــرت سنواتٌ حتى الآن وأنا غارق في قعر الهموم والمشـــاكل والتنقل هنا وهناك وكثرة الأسفار فـــي قـــارات العــالم مجتازاً المحيطات والبحار واليابسة... لكنها لم تزرنـــي ونادراً ما استقبلت طيفها أو لاح لخاطري فـــي زحمـــة الحياة المعقدة التي تأخذنا بعيداً ضمن مشاكلها وهمومـــها ولا تترك فرصة حتى لمجرد التفكير بأقل الأمور أهميـــة أحياناً كالعلاقات الاجتماعية وترتيب الأوراق أو لزيـــارة صديق عزيز...) فنادراً ما لمح رافع زملاءه وأصدقـــاءه في طريق إلا وسلم ثم ودع مستأذناً بـــالانصراف لمـــا يشغله من مسؤولياتٍ وتبعاتٍ لا يستطيع معها الانســحاب منها حتى يترك لنفسه فرصة في نزهةٍ أو حديـــثٍ مـــع صديق أو حتى الاهتمام بنفسه وثيابه فالحيـــاة أصبحـــت معقدة لِحدٍّ الجنون، قاسيةً لحدِ المـــوت، مُرْعِبَـــة لحـــد الهول، عاصفة لحدٍّ الفوضى، وكلٌ يتزاحم فـــي عـــراك

وصراع متلازمين ولا تكون الغلبة لأحد من الأطــراف إلا للقهر والموت فَهُمَا وحدهما المسـيطران فـي هـذا الزّحام دائماً وجميع الفرقاء إلى الجحيم... وكـأن أمــه تنبهه وتحذره إلى ما يتصور كانت نظرة رافع سـوداوية بعض الشيء وذلك مَرَدُّه لفقد أمه بعد أبيه بسنةٍ ونصـفٍ عاش معها في إطار أسرة كبيرة من الأخوة والأخـوات وهو المدلَّلُ بين الجميع صاحب الحظوة في كل الأحـوال وكم آلمه فقد أبيه أبي محمود بعد مرض أنهك قـواه إذ استمر عدة سنوات يغالب فيها الآلام ويعاني وطأتها ليـل نهار فما أشدَّها على العائلة جميعاً لأن كل واحـد كـان يتحمل عبئاً وجزءاً من تلك المسؤولية حتى غادر الحيـاة وفارقها بالكثير من الصبر فهذا وعـد الله: (إن الله مـع الصابرين إذا صبروا) صدق الله العظيم، ولم يكـن أبـا محمود ليتذمر أو يشتكي وهو المؤمـن التقـي الـورع الصابر المكابر على آلامه وهمومه إلاّ أن يقول: (الحمـد لله وبشر الصابرين)، لقد عانى الأمرين لقلة ذات اليـد وضيق الحال ثم المرض الذي ذهب بنور عينيه أولاً وقد تفاقم حتى اعتَلَّ جسمه وساءت حالـه فتوفـاه الله فـي

صبيحة يوم كريم من شهر رمضان.

ترك هذا المصابُ الجللُ في نفس رافع أثراً عميقاً من الحزن ظل يعاني منه طوال حياته وكيف لا وهو الابن القريب لوالده وقد تزوج معظم أخوته وأخواته وكان لصيقاً به قريباً من أحاديثه الشيقة ونصائحه الهامة وحكمته في الحياة والصبر عليها فهي التجارب التي تغرس في النفس آثارها بأصابع الزمن والتي لا تُمحى أبداً... توفي أبو محمود ولا زال رافع يتذكر والده بكل تفاصيل حياته وهو طالب في كلية الحقوق بالسنة الثالثة..حتى اختطف الموت والدته الأثيرة إلى نفسه الغالية عليه الحنون المعطاء الكريمة العطوف.

وفيها صدره الحنون الذي يضمه عندما يضيق به المكان فهي الملجأ والملاذ الآمنين في كل الأحوال... أحبها رافع حباً غريباً وازداد هذا الحب بعد والده المرحوم فكانت أمه بما بقي لديها هي التي تعوضه هذا الحب الأبوي إضافة إلى حب الأم وشوقها وتعلقها وحنانها عليه فهو في نظرها شعلة الضوء والحياة التي

تراها بعد فقد زوجها الغالي شريك حياتها ورفيق دربـــها فما كان لهذا الأثر الأكبر في معاناتها القاســـية بحرقــة المفجوع بعزيز عليها وهي (عشرة عمر) ورحلة حيـــاة عاشاها معاً لتنسيها زوجــــها وأيامــه الحلــوة الهنيئــة مطلقاً..تـــثاقلت الأيام بطيئة على رافع بعد أن شــعر أن أمه تزداد حالتها سوءاً وقد اصطحبها للعديد من الأطبـــاء متنقلاً بين كثير من المخابر الطبية التحليلية والمستشفيات ولكنها لا تشكو من شيء اللهم تلك المسحة مــن الحــزن التي تظلل وجهها وتطل من عينيها وذلك الشيء الخفـــي الذي ينساب بحديثها عندما تتكلم. عانى مـــن كـل ذلــك الأسى الخفي مؤملاً شفاءها لكنه أحسَّ في قرارة نفســـه بشيء لا يوصف من الرهبة والخـــوف الكبـــيرين وهـــو يتصور شبح الموت بقدومه نحو أمه لا ســـمح الله عمـــا قريب..فما الذي سيحل به ومـــاذا ســـيكون مـــن أمـــره وحاله... إنها نهاية العالم بالنسبة إليه... فما أشدها مرارة وأصعبها رحلة وأقساها حزناً، ثم بدأت الأســـئلة الثانيـــة تراوده ثانية (وهل سترحل أمي هي الأخـــرى؟!... وقـــد أصبحت وحيداً بين جدران هذا البيت لا غير الوحدة فيـــه

والصدى الذي سيكون رفيقي في آلامي بعد اليوم فالجميع رحلوا.... فمنهم المتزوج والمسافر والمغادر والراحل.... وأنا... ماذا أفعل... ثم ماذا بعد...) استتكر رافع بأسئلته تلك كل مَا مَرَّ بخياله في هذه اللحظات وتواردت أسئلة أخرى غيرها تزحم رأسه فماذا يفعل وقد شعر بدنوٍّ الكارثة وهول المصيبة حتى أن توفيت أمه في آخر ليل الجمعة قبل طلوع فجر السبت في الثاني من أيلول مودعة الجميع كَرِحْلَةٍ كل من سبقوها... لكن همها الوحيد قبل ذلك وهي بين ظهراني هذه الدنيا هو ابنها الذي ما تخلَّتْ عنه لحظة وقد شفَّ حبها له وآلمها أن تراه شارداً يائساً يتجرع من مرارة حسرة والده ما سيزيده أسىً مضاعفاً إن غادرته مودعة بعد أن يحين الفراق وليس من عناقٍ لهذا المشهد إن أذنت ساعته وقد حانت تلك اللحظات وحال بينهما الموت وأصبح كل في طريق ما بين الدنيا والآخرة...

تقدم رافع بطلبات كثيرة للتعاقد مع إحدى الدول العربية للعمل فيها عله يتجاوز محنته ويتخطى همومه ولا شك أن الإجراءات تأخذ وقتاً طويلاً ريثما يجد نتيجة

أو موافقة أو خطاباً أو إشعاراً من جهة في تلــك الأيــام فقطع بأمره وتوجه إلى شعبة تجنيده ليلتحق بالجيش ملبيـاً خدمة العلم مرجئاً إكمال مواصلة دراسته الجامعية إلى ما بعد انقضاء فترة الخدمة الإلزامية فلم يجد من تلك الجهــة إلا أن أجابته بعدم توفر دورات حالياً لأمثاله ليلتحق بــها وقد وضع نفسه تحت الخدمة... فلم يجد طريقاً لهذا فصدم أكثر وتعقدت أموره الحياتية بسرعة مما دفع زوج أختــه الكبرى عدنان أن يطلب منه القدوم إليه ليصطحبه معــه كل يوم في سفراته الداخلية للمحافظات والأريــاف فــي سيارته لطبيعة عمله حتى يخفف عنــه مشــقة التفكـير وشرود الذهن فيمــن تولاهــم الله برحمتــه واختــارهم لجواره... فاستجاب رافع لعدنان زوج شقيقته بعد رفــضٍ وأخذ ورد وكانت قد عافت نفسه الطعام والحياة وزهد في كل شيء مما أضعف صحته وهزل جسمه وتغير حالــه وامتقع وجهه حتى بدأ يسترد عافيته بجولاتــه الجديـدة اليومية ناسياً أو متناسياً قليلاً أحزانه إلى أن جاءته رسالة من إحدى البعثات للتعاقد معها ففعل مستغلاً هذا الظـرف علّه يخرجه من عزلته ويضعه على الضفة الأخرى مــن

النهر بعد عراك وصراع في موجه المتلاطم من الـــهموم والأحداث والآلام.... توجه للعمل إلـــى شـــمال إفريقيـــة مدرساً وقد سعى لنقل أوراقه الجامعية ليكمل دراسته فـــي جامعة الإسكندرية للحصول على إجازة شـــهادة القـــانون (الحقوق) فيما بعد، ومضت أيام قليلة استطاع أن ينجـــز خلالها كل ما توجب عليه عمله إلى وضع رجله على سلم الطائرة متوكلاً على الله وقد حدث نفسه مـــراراً...(الآن وقد أصبحت وحيداً بعد فقد الأبوين فما الفـــرق بيـــن أن أبقى أعاني الوحدة في منـــزلي وبين أن أكون وحيداً فـــي عالم آخر بقصد العمل ولا شك أن الأمر سيان والوِحْـــدَةُ في الحالتين واردة وهي الوحدة لا تغيير لكنني سأكســـب المال وأجد المعارف وأشاهد العـــالم وأتناســـى وحشـــتي وأحزاني وربما أنظر إلى الأمور من زاوية غير زاويـــة اليأس فَلِمَ لا يكون الزواج والاستقرار؟) عندها عقد العزم ويَمَّمَ شطره آملاً الخير والسلامة والتوفيق فيما عزم عليه إلى أن وصل إلى مقعده في الطائرة وجلـــس مســـترخياً ينظر إلى عالمه الحبيب ومدينته دمشـــق الفيحـــاء التـــي عشقها وأحبها مثل أمه وأبيه... من نافذة الطائرة وهـــي

تقلع مرتفعة في الجو. عندها حدث نفسهُ، وقد حان وقــت الفراق فقد ودع الجميع وبدأت رحلته مع المجهول نحـــو الأبعد مستعرضاً شريط أيامه منهياً شوطاً من حياته ليبـدأ شوطاً آخر منذ الساعة... ذرف من عينيه قطـرات مـن الدمع سَحَّتْ على خَدَيْهِ بِصِمْتٍ وهو لا يدري هل فـراق للأحزان وبداية لرؤيا ربما تكون سعيدة.. أم أنها استمرار متواصل سينقله بعبئه في هذا المجهول الذي يرتحل إليـه دون نكوص بعد أن حزم أمره وجزم فيما يفعل.

وبدا الصراع يتخطفه والهواجس تنتابه حتى حطت الطائرة على أرض المطار حين شاهد بعد هبوطه منـها مع الركاب الجو المكفهر والغبار المتصاعد والأتربة التي تجلل كل مكان وعدم الرؤيا والوضوح. تعثر في مشـيته متثاقلاً فقد بدت له الظروف الجديدة بوجهها المرعب منـذ البداية على غير ما توقع... أين جمال المكان؟ وطـراوة الهواء ورائحة الياسمين وهو يجلل كل جـدران أحيـاء دمشق وأين المتسلقات التي تشبث بالعماراتِ مرتفعة حتى آخر طابق منها وأين الحركة الدؤوب التي لا تنتهي وأين المدينة الصاخبة بجيوشها وزخمها وأهله؟ ثم أحبائه. بـدأ

رافع يشعر بالوحدة الجديدة والتغيير لكنه شد من عزيمة نفسه وثبت أقدامه مواسياً نفسه مطمئناً روحه المنبهارة بالأفضل... وقال: (ما هي إلا زوبعة عابرة ستنتهي عما قريب) إلى أن وصل لقاعة اصطحاب الحقائب فتناول أمتعته وصعد إلى الحافلة الكبيرة التي تتسع لأعداد فوق المائة جلوساً ووقوفاً، ولم يجد فيها غير التراب يُعَفِّرُ كل أرجائها محتلاً كل أمكنة الركاب الذين سيصعدون.. هكذا بدت حال الأمور الأولى له منذ لحظات الفراق وها هي تسير على مهلٍ متثاقلة تخترق ما سيَجدُّ من حياته بلا تفاؤل... لكن الرحلة بدأت والعودة غير ممكنة حالياً وعليه أن يوطِّن العزيمةِ ويتحمل المجهول ويستعد لمجريات الأحداث كما تكون فقد عركها وخبر منها مصاعبها فلا أقل من أن يتجمل بالصبر ويتحلى بالإرادة... إنها الحياة والإنسان هو الوحيد الذي عليه الصمود فيها لأن الله قد أودع في بني البشر كل المقومات التي تجعلهم أهلاً لها ولولا ذلك لما تمييز الإنسان عن السائِمَةِ بالعقل والحكمة وحسن التدبير والتخطيط وتعمير الدنيا بكل نافع مفيد. كانت هذه الموازنات تجول في خلد

رافع وتفكيره حتى استقر على رأي مفاده هو أن الإنسان وهو القوى من بين كل المخلوقات الكونية مهما كبرت وعظمت فهو الأقوى بفعله وحسن تدبيره وقد ذللها له الله جميعاً من حيوان وزرع ورياح وجماد واستطاع الإنسان أن يخضعها لإرادته.ويستفيد منها لبقائه واستمرارية حياته فيما بعد...

إنها الصراعات تجتاحُ النفس في كل المجالات والخطوات والأمور حتى نزل بفندق بالمدينة واستقل بغرفة وذلك الفندق يعتبر فخماً فاستطلع غرفته وتأملها وقال:(هذه الغرفة لا تنفع إلا لتربية الدواجن أو لقطيع من الماعز والأغنام تم عقب.. لكنها مفارقات قلما يجود الزمان بمثلها على غيره). وفي الصباح عرج على الجهات المسؤولة في التعليم وتبلغ باستلام عمله وتابع رحلته في اليوم التالي متأبطاً خطابه وحقائبه حتى وطئت قدماه أرض القرية التي توجه إليها وحَطَّ رحاله فيها والتي يسمونها (بَطَّة) وهي من أعمال سيدي سعيد التابعة لمنطقة المرج في الجبل الأخضر... كان ذلك يوم الجمعة وفي هذا اليوم يتقاطر كل مَنْ في القرى القريبة

والمجاورة إلى بطة لوجود بعض مواد التموين من خبز وغذاء ولحم ومعلبات وسجائر وتعتبر مركزاً صغيراً لكل القرى التي تحيط بها وهي محط أولئك المدرسين في هذا اليوم تَبَضُّعَاً ومنامة. ورافع مثل الجميع نزل ضيفاً على من سبقه من الزملاء المتعاقدين إليها وكان سكناً متواضعاً جداً وهو من الصفيح يتلاعب فيه الريح وفي أرجائه ويعزف المطر فوق سطحه وتخترق أصوات ثغاء الماعز والطيور والبقر جدرانه الطرية الموجودة في زريبة بعيدة عن السكن جداً والمتجاوبة مع نفحات الريح الشجية في معزوفات لا تنتهي كالأفلام السينمائية وفي العروض المتواصلة.. والبرد والصقيع الصباحيان في هذا الوقت من الشتاء من شهر كانون الأول كانا يدقان العظام وينخرانها والأيدي ترتجف والجسم يرتعش لقلة الدفء إلا على حطب رطبٍ قد عسعس بدخانه والمترمد في كانونه ضعيف الاشتعال سيئ التدفئة مما حال بين مجموع الأفراد من المدرسين وتنفسهم نافثاً فيهم سمومه مصدعاً رؤوسهم والسعال المتقطع بنوبات متلاحقة على مراحل في صدر كل فرد في المجموعة كأنها تناوبات

لعسس القرية ودوريات للعمال تتعاقب في كل منهم بعـــد
الآخر. لكن رغم قساوة الجو وبساطة المكـــان فالنكتــةُ
والفكاهة تعلوانِ على كل تلك الكآبة ويتجمهر الحشد فـــي
دائرة متحلقاً حول الموقد وقد بدأ التعارف لتبديد الجفـــاء
وتقريب الفجوة (فهم من كل قطر أغنية). تقاطروا مـــن
أقطار عربية كثيرة ليتجمعوا ويجتمعوا في هذه الرقعـــة
من الأرض وهذا المكان .... قال المضيـــف للجميـــع:
مُقَطِّعاً صمت الجلسة هادماً جدار العزلة باعثاً الحركـــة
في الحضور: (الداعي أبو سطام حسون التاجر) وبدا كل
واحد يعرف عن نفسه وعن قريته التي عُيِّنَ فيها ســـواءً
كانت بعيدةً أو قريبةً حتى كان دور رافع فقال: (أنا رافع
السعيد في بطة هذه) فسأل أبو سطام حســـون التـــاجر:
(وأنت يازميلنا الذي على اليمين)، فقـــال: (أنـــا ســـامر
الأحمد وقريتي بالقرب من بطـــة يعنـــي "فـــي المرقـــة
ابتعتها") وكان هذا الزميل مصرياً يتحلى بروح النكتـــة
والدعابة فضحك الجميع حتى تبددت الكآبة وانزاح الغـــم
وَطُوِيَتْ سحابة ذلك اليوم في شبه انسجام ووئام، رغـــم
الخوار والثغاء والريـــاح والمطـــر والـــبرد والدخـــان

والعزلة.... فَجُنَّ الليل واستلقى كل واحد على سـريره أو مفرشه في زوايا المكان بعد طول حوار ومناقشات أخذت ربع الليل على ضوء الشمع الخـــافت واحتســاء أقــداح الشاي من إبريق لطخه الحطب المشتعل ببطءٍ في اكـــثر من جهة بسوادٍ بدا كالبقع فوق الثوب المهترئ الذي لـــم ينل حظه من الاهتمام منذ زمن بعيد وقد عفـــى عليــه الدهر.. غفى الجميع إلا أبا سطام فقط، وكان هو الأخـير الذي ما زالت عيناه ترقب كل واحد منهم وهــو يبتسـم محدثاً نفسه قائلاً: لقد مرت سحابة النهار وجزء من الليل ولا زال في الجعبة الكثير، ثم تبعهم ووضــــع المـــلاءة والبطانية فوق رأسه وغفى متوكلاً على الله... ومضــــى من الوقت ربع ساعة تقريباً والجميع نيام فقــد أرهقــت عيونهم سحابات الدخان وصدعت رؤوســهم ولا زالــت صدورهم في صراعها مع الســعال تنتابــهم بهجماتــها المتلاحقة دون توقف وهم في غفلـــة غــارقون. دبـت الحركة في المكان معلنة بدء الجولة الثانية من الليل قبـل انبلاج الصبح وبدء العمل فالرمـــاد يتطـــاير والأطبــاق المستهلكة ترتطم بالجدران المعدنية والقدر يتحرك حتـــى

أصوات القطط تعلن عن بدء جولتها للمهمة القادمة. فهي تموء عبر سكون الليل بأصوات متفاوتة متغايرة ما بين الصغيرة والكبيرة وكذلك الأقداح تقرع بعضها.. بدأ الحشد يستفيق وكل فيما يرى مشغولٌ بالنظر إليه والنوم يغلب على الجميع وهم أنصاف نائمين وأنصاف يقظين... وكان رافع أولهم... لكنه لم يشاهد أحداً يحرك كل تلك الأشياء ولم يرَ قططاً أو حيوانات إلا ما يتبعثر مجتهداً في الإقلاق وعدم الراحة... عجب رافع وعجب الجميع وكل ينظر إلى زميله مستغرباً ما هذا الذي يحدث وكيف لهذه الأمور والظواهر أن تحصل من تلقاء ذاتها فعاجل رافع الجميع بدعابته حين قال: (لكأن جاذبية الأرض دخلت سكننا وابتعدت عن مركزها في جبال تركيا المغناطيسية لتشاركنا فرحتنا بهذه المناسبة وهذا الليل الساحر لذلك بدت هذه الظاهرة أمامكم بفعل الجاذبية الآتية من أقصى الأرض).

قال سامر الأحمد: (لا بل إنها الخيالات التي نراها في هذا الظلام الدامس الذي لا يسمح لضوء عود الثقاب

الذي أشعلته أمامكم من الرؤية الواضحة، وقد شبعنا من دخان الموقد وعَشَتْ عيوننا وتشوشت عقولنا فصرنا نرى الأشياء على غير ما هي حتى آذاننا صُمَّتْ من ضجيج فرقعة الصفيح عبر الأصوات المتعاقبة من كل ما حولنا). قال عامر الصعيدي: (إني أخمن أن الحكاية أبعد من ذلك يا زملائي، فلا بد من وجود بعض السكان الذين يقطنون بعيداً عنا ويرغبون بممازحتنا أن يكونوا هم من يفعلون مثل هذه الحركات فناموا ولا تلقوا بالاً لمثل ذلك). لكن الضوضاء ازدادت وزاد معها تطاير كل شيء حتى أنهم ارتطموا ببعضهم البعض أكثر من مرة وكلٌ يتدافع نحو الأخر فيما يثير فيهم الشك والتحمس للعراك إن تطور الأمر نحو الأسوأ فيما بعد. رفع أبو سطام غطاء رأسه وأزاحه عنه بيديه بهدوء مفرط وهو الوحيد الذي نام متأخراً وها هو ذا يصحو متأخراً أيضاً دون الجميع قائلاً: (ألا زلتم حتى هذه الساعة "وكأنه لم يسمع ما جرى من حديث" غير مصدقين لما يجري وتتجاهلون الواقع ؟؟. حقاً إنكم أقوى من العفاريت واشدها جرأة وثباتاً) قال رافع: (لكأني بك عفريت منهم

يا أبا سطام وهل تظننا ضعفاء حتى تُخَوِّفَنَا مثـــل هـــذه الأمور). قال عامر الصعيدي: (أظننا أقوى منها فالإنسان سيطر على كل هذه المعمورة وكثير ممـــن يُخْضِعُـــونَ الجن لسيطرتهم أليس سيدنا سليمان الحكيـم كـانت لـــه الطاعة عليهم ؟) ولكن أبا سطام قـــال مؤكـداً: (إنـــها العفاريت من تعبث بحياتنا وتشاركنا هذا المكان القصـــي في خلائنا المقفر فلا جـــيران ولا مَحَالَّـــة تجاريـــة ولا بيوت.. فكيف لنا بمثل ما تقولـــون؟ والطريـــق موحلـــة مقطوعة بالسيل ولا تسمح لأي كان من الاقـــتراب مـــن سكننا الهادئ الجميل هذا) ثم عقب ثانية (على كل حـــال إن لم تصدقوا فانظروا من تلك النافذة المشـــرعة نحـــو الجنوب سترون ما يقنعكم حقاً يا إخوان) نظـــر رافـــع بعينيه خارجاً واستطلع الأمر وتبعه الآخرون حتى يـــرى ما هو الذي يثير الدهشة ويُقَوِّضُ الراحة ويقلق البـــال.. فلمح رافع خارج السكن مجموعة كبيرة من الكلاب تقف كلها كصف عسكر تطلق زعيقـــها وضوضاءهـــا عـــبر نباحها المتعالي إلا واحداً هو الأشد شراسة والأكبر حجماً وجسماً والأغمق لوناً.... كان أسودَ فاحماً ينظر نحوهـــم

بعينين محمرتين تقدحان شزاراً وكأنه يقول للجميع هـــا نحن من فعل ذلك.... فمـــا بـــالكم لا تنــامون؟ ازدادت الدهشة وعلا الوجوم وهدأت العاصفة وقد طلع النـــهار ورحل القطيع ودوت صافرة القطار القادم المقترب مـــن آخر محطة له والتي هي في قريتـــهم تلـــك المشـــؤومة البعيدة..... عندها قال أبو سطام: (هذه آخر محطة لـــهذه الليلة وغداً لنا لقاءٌ مع قطار العودة).

الفهرس



من اصدارات المؤلف

المطبوعات:

شعر: الندامى ـــ ١٩٨٦

فينوس ـــ ١٩٩٦

الإقحوان ـــ ٢٠٠٠

الطيوف الوردية ـــ ٢٠٠٠

المسرح: أهم الغزوات ـــ ١٩٩٧

القصص: قطرات من ذاكرة الفكر ـــ ٢٠٠٠

تحت الطبع:

شعر: أعاصير

قطرات الندى

المسرح: ملحمة التاريخ

إضاءات

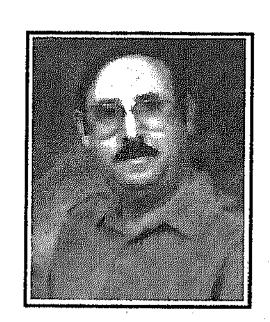
الرواية: أحلام الراحلين











لكنَّ الطفل الصغير الذي كان مستغرباً أشد الاستغراب منفعلاً أشدَّ الإنفعال ، مستهجناً ذلك العمل الذي لا يُرى والفعل الذي لم يتحقق صادقاً في أحاسيسه ومشاعره ، واثقاً من نفسه بأنه على طرف النقيض من كل هؤلاء .

فما كان منه إلا أن صاح قائلاً : أنا لا أرى شيئاً سوى حركات لرجل أو همَكُم بما يفعل .. فعلام الدهشة والانبهار ؟؟.

والعجب والابتسام والضحك ؟؟.

لاشكَّ أنكم بلهاء ؟؟ لا ترون غير الأوهام .. " وكأنَّ على رؤوسكم الطير " فأُسقِط في يدِ الحضور وشعروا بالخزي .